وقال حضرة الاب الفاضل الارشمندريتي كير باسيليوس اماره رئيس المدرسة البطريركية في دمشق

اهلاً ائتنا اليوم مرآة الوفـا ناصيف سمى ذا الكتاب فانصفا
مرّح لحاظك في المعاني تبتهج من كل معنىً رائقٍ جمع الوفا
يا واصفاً هذا الكتـاب فانه ماءٌ فراتٌ او دوا فيه الشفا
كنا نروم زيادةً في متنه لكن ابو زيدٍ وفى ما قد كفى

وقال جناب الاديب يوسف افندي مسديه احد اساتذة المدرسة البطركية في دمشق

هذا المؤلف قد حوى حكماً حكت دررًا سمت لمعاشر الفتيانِ
ناصيف انشأه بفكرٍ ثـاقبٍ فاتى جميل الاسم والعنوانِ
يولي ولا شك المطـالع لذةً ويفيد للفتيات والشبانِ
فاقرأ تجد فيه الفوائد جمـةً وتلذ ايضاً في بديع معاني
واشكر مساعي معتنٍ بصنيعه واسأل له اجرًا من الرحمانِ

—*****—

والمناء مؤيدين بالعز والرخاء الى ان وافاهما الاجل الموعود فسبحان المحيي المميت الله الواجب الوجود انتهى

قال جناب الشاعر المطبوع عزتلو سليم بك عنحوري مقرظاً

روايةٌ سكبت في قالب الحكمِ ابدت لنا الدرَّ في سمطٍ من الكلمِ
مرآة رشدٍ لاهل العصر قد جليت تهدى الى الخلق حسن الخلق والشيم
اكرم به اثرًا جلت منافعه جادت به راحتا ناصيف ذي الكرم
من فاق اقرانه نطقاً وحسن نهىً وساد انداده بالطرس والقلم
جاءت بواكير ايديه منادية للسحب فطرٌ تليه سحة الديَم
ما البدر الاَّ هلالٌ في اوائلهِ حتى اذا تمَّ اهدى النور للأُمم
فلا تكن بمبادي الفضل مزدريًا ان التدرج يولي حسن مختتم

وقال جناب الكاتب الفاضل والشاعر المطبوع عزتلو ابراهيم بك الاسود صاحب جريدة لبنان الغراء

ورواية في روضة الاداب قد ظهرت فكانت زهرة التاًليف
تبدي لنا الخبر اليقين وحسبها ان صاغها قلم الصدوق نصيف
فاقرأ تجد في كل سطرٍ حجةً تغني عن الايضاح والتعريف

وقال جناب الشاعر الاديب الشيخ شاهين الخازن

اذا ما رمت إحكام الثناء فقابل واعتدل عند الثراءي
ولا تعجب لاهل الجد الاَّ بما نشروه من طي الخفاء
اليك روايةً بكرًا فانصف مؤلفها جناه من الذكاء
وان ترغب لها وصفاً فخذه من العنوان مرآة الوفاء

—*****—

يتسالون همساً وهم يتراوحون في الظنون حدساً ورجماً بالغيب وليس من يدرك الحقيقة او يصيب المرمى وكان العامل عرض على الامير النزول في داره فابى وقال قد أُعدَّ لي في شارع اصبهان بيت وهنالك اقيم فزاد هذا الجواب في حيرة الناس وما برح القوم سائرين حتى بلغوا قصر عفيفة فخرج الوكيل والخدم وانزلوا الامير ومن معه وكان القصر قد احسن ترتيبه وتزيينه واعد فيه ما يليق بابناء الملوك فعجب الامير منصور ومن معه مما رأُوا وبعد ان تناولوا الطعام انصرف كلٌّ الى مضجعه ولبث خليل في خدمة الامير فسأله طويلاً عن مساوي العمال ونقائصهم فابدى له من المعلومات والمطالعات ما زاده يقيناً بكفائته ونزاهته واقتداره على الاصلاح واحكام السياسة فاعلن ثاني الايام عزل العامل ونصب خليل مكانه ووكل اليه ان ينتقي من الاعوان والكتاب والجباة من يحسن اختياره مبيناً للمعزولين سوء سيرتهم وجهلهم واهمالهم حقائق واجباتهم ففرح الناس الا من ختم الله على قلوبهم بهذا التبديل واخذت الامور تجري احسن مجرى نازلةً منازلها من العدل والاحكام حتى ظهر الفرق للعيان في وقت قريب ثم اوضح الامير منصور لخليل استعداده لحضور زفافه وانه ينبغي التعجيل به لانه ازمع على العود فلبى خليل مفتخراً وابلغ عفيفة الامر ففرحت وشكرت الامير منصور على تنازله ولطفه ولم يمضِ اسبوع حتى تهيأَت المعدات واستكملت الزينات وبدأَت الافراح فكان السرور عاماً والصفاء شاملاً والانس مستغرقاً الاهلين على بكرة ابيهم مع اختلاف الصفات والطبقات فبلغ الحبيبان منتهى امانيهما وهما في اوج العز والفخار وبعد انقضاء ايام العرس الجميلة ذهب الامير مشيعاً بالقلوب وقد سار في ركابه خليل وجلة اعيان المدينة بضعة مراحل ولما عزم على العود اوصاه الامير بالاهلين خيراً ووعده بدوام الاحسان والمساعدة وعاش خليل مع زوجته عمراً طويلاً متمعين بالراحة

على حضرة الامير مسلماً فانه مشتاقٌ الى التعرف بك واستماع
حديثك الدال على حكمتك وادبك فقابله غير متهيب ولا وجل
واطلق للسانك البليغ العنان فانك ستبلغ فيما ارجو من الشهرة
والمجد شأواً بعيداً تتطالل اليه العظماء من الرجال ولا ينالونـه ثم
دعت ببعض الخدم وامرته ان يذهب الى الامير مستأذناً لخليل
بالزيارة فذهب يصحبه خليل وابلغ الامير كلام عفيفة فرحب
بزائره ونهض على الاقدام وكان السرادق غاصاً باعيان السروجيين
وقضاتهم وعمالهم فنهضوا لنهوضهِ واشد ما كان اندهالهم لما عاينوا
ان هذا الترحاب الفائق كان لخليل الذي لم يكن مرَّ على اطلاقهِ
من السجن اكثر من شهر واحد فقرَّبه الامير منه وادنـاه وفتح
للكلام معه باباً فدخله خليل بثبات جنان وطلاوة لسان اعرب عن
بلاغةٍ وحكمةٍ وحسن بيان متفنناً في حديثهِ والحديث ذو شجون
فطرب الامير وزاد وقعه عنده اما العامل وقومه فبهتوا وضُربوا
بالخرس واصبح ينظر بعضهم الى بعض كمن اخذ بالسحر ولما ازف
وقت الرحيل دعوا بالخيول فركب الامير والى جانبـه خليل
ودخلت عفيفة الى محملها والناس يتوهمون انها من حريم الامير ولم
يكن احد من اهالي سروج عالماً بالاسباب التي دعت الملك العادل
الى ان يبعث بابنهِ وولي عهده اليهم متحملاً بعياله واثقاله فاصبحوا

صديقي ومعتمدي الامين

انني اتيت صحبة سيدنا الامير ولي العهد وهو سيكون نزيلاً في قصري فاؤمل ان تسرع لتدارك وتهيئة ما يليق بهذا النزيل الخطير من معدات الراحة واسباب الاكرام فاننا موافوك بعد بضع ساعات واني على ثقة بسلامة ذوقك وحسن اختبارك فلا اوصيك بشيء واوكل الامر اليك

ثم بعثت بالكتاب مع خادمها يوسف وقالت له سر حثيثاً وابلغ الكتاب ثم عرّج على منزل خليل الذي علمت من السنة الناس انه نجا واساله عن حاله ودعه يوافينا في هذا المساء فخرج الخادم وبعد قليل دخل بعض الخدم يستأذن لرجل بالدخول عليها فاذنت له واذا به صاحبنا خليل

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما   يظنان كل الظن الاّ تلاقيا

وكان الخباء خالياً فاعتنقا اعتناق اللام للالف واعينهما تهطل دموع الفرح وقبل كل منهما الآخر قبلات احرّ من النار وهو يود ان تكون كل جارحةٍ منه الف لسان يترجم عن حبهِ وفرط صبابته واشواقه ثم جلسا متقابلين وبعد ان تمتعا بلذة هذا اللقاء الثمين قص كل منهما على صاحبه ما مرّ عليه من غرائب الحوادث حتى بلغا النهاية فشكرا الله على حسن العقبى ثم قالت له قم فادخل

والكرامة من لدن الملك ونسائه استأذنت بالانصراف فاهداها الملك عقداً من الماس الفاخر وتاجاً وهاجاً مرصعاً بالجواهر لتتحلى بهما ليلة الزفاف وامر لخادمها بصلةٍ ثم وصلها النساء بكثير من الحلل المرقومة والثياب المصنوعة من الابريسم والديباج وتهيأ ولي العهد ليصحبها الى سروج انفاذاً لامر ابيه حتى اذا حان الرحيل خرج الموكب من القصر مؤلفاً من عددٍ عديد من الفرسان والخدم والاجناد فشيعهم امرآء المدينة وعظماؤُها حتى القُصَير ثم ساروا مجدين يطوون المراحل يواصلون السير والسري وعفيفة تود ان تكون لها اجنحة فتطير لتعلم ما حلَّ بخليلها فما راع اهل سروج الأ اخبار تتطاير اليهم من اهالي القرى بان موكباً كبيراً في مقدمته ابن الملك ومحملٌ للنساء يسير قاصداً المدينة فذهب السعاة من لدن العامل يتحققون الانباء فعادوا مثبتين مؤكدين فاوجس العامل والحكام خيفةً على مناصبهم وهرعوا مسرعين الى اللقاء وانتشر اهالي البلدة في اكناف الطريق على مسافة ساعاتٍ من المدينة قصد الفرجة فما عتم ان دنا الموكب منهم وبعد اجرآء مراسيم السلام ساروا جميعاً الى حيث نصبت لهم السرادقات في ظاهر البلد للاستراحة وهنالك انفردت عفيفة في خباءٍ مصون واستدعت بدواةٍ وقرطاس وكتبت الى وكيلها ما يأتي

خليل حاسباً تلك الساعة فاتحةً لحياة جديدة بُعثَ فيها بعد الموت وما كاد يبلغ منزله حتى جاءهُ وكيل عفيفة مهنئاً اياه بالنجاة ومستفسراً عما لديهِ من اخبار مولاتهِ فقال له خليل ليس لديَّ شيئاً من اخبارها ومع انني على يقين بان نجاتي تمت بسعيها لم ادرِ حتى الان كيف تيسر ذلك وباية واسطة ولكنني ارجح قرب معادها فعرض عليه الوكيل شيئاً من المال فقبلهُ شاكراً واقام في بيته منتظراً رجوع حبيبتهِ ومنقذتهِ الكريمة

الفصل التاسع

في قصاص خادع وكيفية عود عفيفة الى سروج

اصبح الناس في دمشق اذ عاينوا الوزير خادعاً مصلوباً في باب الجابية وعلى صدره لوح كتب فيه ✻ هذا جزاء من يخون ملكه ووطنه ✻ فسرَّ الخلق لخلاص المملكة من اذى هذا المنافق ودعوا كثيراً للامير ناصر السروجي الذي كان سبباً لظهور خيانته وكشف حقيقته اما زعماء العربان فعفي عنهم والقي عليهم من النصائح والمواعظ ما جعلهم يحسنون التوبة ويشعرون بالندامة ويعدون بالطاعة والاخلاص وبعد ان هدأت الاحوال ومرَّ على بقاء عفيفة في دمشق بضعة اسابيع كانت فيها مظهراً للاجلال

النعمة وهو يقول واهاً لكِ ايتها الفتاة الطاهرة فانكِ اشتريتِ حياتي وهي وان كانت ملكاكِ بالحب فقد اصبحت الان تخصكِ بالعدل والحق ثم ذهب مع السجان الى دار العامل والناس من حولها يشيرون الى خليل بالاصابع قائلين ان الملك قد عرف براءة هذا الرجل الفاضل فأمر باطلاقه على اجنحة الزاجل فلما دخل خليل يصحبه السجان بش له العامل وقال له ما كنت احسب ان لك في دمشق من ذوي المكانات من يقوى على نجاتك من العقوبة فاحمد الله معنا على وصول الامر المؤذن باطلاقك في هذه الساعة اذ لو تأخر ساعة واحدة كنت معدوداً في الغابرين فقال خليل ان شفيعي لم يكن الاَّ العدل وما اطلقني الاَّ الحق وهل تحسب ان ملكنا ممن يحابي بالوجوه او يميل مع الاهواء حتى ينقاد الى اغراض بعضٍ من ذوي المكانات فيعفوا عني دون ان يترجح عنده صائب نزاهتي وبراءتي من جرم لم ارتكبه حاشا وكلاَّ ليس من شأن الملوك المصانعة واذهاب الدماء هدراً ولو قمتم بواجب مهنتكم حق القيام لعرفتم كما عرف مولاي الملك انني مظلوم فظهرت علامات الغيظ على وجه العامل ولكنه سكت على مضضٍ وبعد تأمل قليل قال له اذهب الان الى منزلك وسوف يعلم الملك انه مخدوع وانك لست اهلاً للصنيعة فخرج

فرج اتاني ومن اين ما اخالك يا اخي الاّ هازئٌ بي او تريد ان تموّه عليّ شفقةً منك ورحمةً اذ لم يصغوا لخزعبلاتك وامروك ان تقودني الى القتل فيا حبذا هو لاتخلص من هذه الشدائد اما السجان فلم يحرّ جوابًا بل تلعثم لسانه لفرط ما خامر فؤاده من السرور وما ابطأ ان فك القيود من رجليه والاغلال من عنقه واخذ يقبله تكرارًا بعارضيه و يقول له بلسان يتلجلج احمد الله فقد نجوت ولما هدأ بعد هنيهةٍ روع الاثنين قال السجان انني ذهبت نحو الساعة السابعة الى حيث قتل شريكاك لاخبر زعيم الشرطة بمرضك وعجزك عن القيام وكان المقدور قد نفذ بذنيك الخبيثين واذا به يشتد ركضاً نحو قصر العامل وهو يقول بطاقةٌ مستعجلة وردت من لدن الملك على اجنحة الطير ولا بد ان تكون متضمنة امرًا هامًا وكان تجمع كثير من الناس حول القصر لما عاينوا الحمامة مرفرفة على سطوح القصر حاملة رسالة اذ ان العامة في ذلك العصر كانوا يدرون انه لا تنفذ الرسائل على اجنحة الحمام الاّ لامر هام فوقفت بين الجمهور انتظر ما يكون واذا بزعيم الشرطة كان خارجاً يدعوني بصوتٍ جهير فلما دنوت منه قال لي اسرع الى السجن واطلق خليلاً من قيودهِ وآتِ به برفق الى هنا فان مليكنا العادل قد منّ بالافراج عنه فسجد خليل مرارًا شكرًا لله على هاته

مصدقاً على القول انك مريض مدنف لا تستطيع القيام والكلام وهكذا يواصلون الانفاذ الى ان ينتهي الحال اما بالموت واما بالشفاء وهي فسحة يؤمل معها عود عفيفة بنبـاء يسرّ فاستصوب خليل رأي السجان وقال له انني اوافقك على ما تريد اذا كنت واثقاً بالنجاح دون ان يصيبك مكروه قال السجان ثق بي وكن في راحة فانني اخبر بمصلحة نفسي واعرف كيف ادبر الامر ثم خرج وقفل الباب وبقي صاحبنا خليل وحده فانطرح على الصعيد وهو شبح بلا روح يفتكر في هذه العاقبة التعيسة ويقطع علائقه من الدنيا متجهاً الى الابدية التي اصبحت منه على قاب قوسين وبعد ان استغرق في الهواجس ادركته سنة من النوم دامت بضعة ساعات ولم يستيقظ الاّ على حركة قلقلة القفل فنهض مذعوراً خشية ان يكون السجان حبط سعاه فأتى يقوده الى حيث يراق دمـه على مذبح الظلم والجهل ثم عرض له انه ربما كان مصحوبـاً بالطبيب فعاد الى مضجعه واطبق جفنه واذا بصائح يقول بشراك يا رفيقي خليل فقد جاءك الفرج من حيث كنت تتوقع ففتح عينيـه واذا بالسجان ضاحك الثغر متهلل الوجه تبرق اسرته جذلاً وحبوراً وفي يده مفتاح القيود المكبل بها خليل فانذهل خليل واصبح كمن بهِ جنةٌ واخذ ينادي بربك افصح بربك صرّح ماذا جرى واي

يرجح انها تعود عما قريب فان تركنا الامور تجري في مجراها نفذ بك الحكم اليوم وعادت عفيفة بصفقة الخاسر الاوّاه وربما كانت حسرتها هذه علة للحاق بك فاكون قد قتلت نفسين اذ لم اساعد على تأجيل قتالك وهذا متيسر لي فيما اظن بدون كبير عناء وحدوث ادنى ضرر وهاك البيان

ان زعيم الشرطة قد استدعاني علناً وقال لي ان حكم القتل سينفذ اليوم بعد الظهر على كلٍ من الثلاثة الثابت عليهم قتل ابن التاجر فآتِ بسجينك في الساعة السابعة مخفوراً ومقيداً الى ساحة المدينة ليتم قتله بعد صاحبيهِ اللذين سينفذ بهما الحكم في الساعة السادسة ونصف فساتأخر انا هنا الى الساعة السابعة حيثما يكون القضاء نفذ في القاتلين فعلاً وهما مسجونان الان في غير هذه الدائرة بخفارة سجانٍ آخر وسيساقان الى الساحة عند الظهيرة على حدةٍ ثم اذهب فاقول ان سجيني اصبح اليوم مريضاً لا يقوى على النهوض والمشي ولعله يموت قريباً لانه منذ ايام لم يأكل طعاماً وهو في غاية الضعف والنحول فلا بد من تأجيل انفاذ القضاء الى بضعة ايام لنرى ماذا يكون من امره فعندها يؤمر الطبيب بافتقادك واستطلاع رأيه في شأنك فآتي انا بالطبيب وهو من اصدقائي الذين يوفقون الامور بحسب الاغراض وبدينار واحد اجعله

في هذه الدار الفانية فهما ولا ريب متيسران في تلك الدار الباقية ذات النعيم الابدي والسرور الدائم فالقِ على الله سبحانه اعتمادكِ فهو يعصمكِ بالصبر والعزاء الى ان نجتمع في السماء حيث لا حزن ولا شقاء بل حياة لا تفنى وخيرات لا تنفد

فتمزق فؤاد السجان حزناً عند سماعهِ هذا الكلام وقال لخليل وهو يتشرق بدموعهِ مهلاً يا خليل انني ساجازف بحياتي في سبيلك لعلي استطيع التذرع الى نجاتك فقد سنح لي الان خاطر اظن انه لا يخلو من النفع فقال خليل انني اشكرك ياصديقي ولكن ان سمحت بالقاء حبيبتي الى التهلكة حباً بخلاصي ولم افلح فضميري حتى الموت لا يبرح يوبخني على هذا التسامح المبني على حب الذات انما اكون كنوداً قاسياً اذا واطأتكَ انت ايضاً على تدبيرٍ يضرك املاً بنفعي لا وابيك ما انا جلّاد ولا قاسي القلب فارضى بما تعرضه عليَّ وان ترتب عليه نجاتي على انني منذ الان اعتد نفسي في عداد الاموات واقنع منك بحسن الذكرى واستمداد الرحمة والعفو قال ذاك يا خليل ان الخاطر الذي سنح لي ليس فيه كبير خطرٍ عليَّ وهو لا يخلو من منفعةٍ لك انت تقول ان عفيفة شخصت الى العاصمة ساعية وراء خلاصك وقد مضى على ذهابها مدة غير يسيرة فان كانت مفلحة في رحلتها

قال ذلك سراً كنت كتمته عنك فيما سبق من الايام اما الان فلا محيد عن افشائهِ وايداعهِ اليك اعلم يا اخي ان الفتى الذي زارني في هذا السجن ونفحك بالدنانير وتقدم لك بان ترفق بي وتحنو عليَّ انما هو بالحقيقة بكرٌ عذراء اطهر من ماء السماء ذات جمالٍ يزري بالصباح واخلاقٍ تتساب العقول والارواح رأيتها صدفةً فعلق بها قلبي وولع قلبها بي فتعاهدنا على الحب وتواعدنا على الاقتران ولما عثرت بجثة القتيل تلك العثرة التي كانت مصدر شقائي وذهاب حياتي كنت ذاهباً اليها فعرض ما ساءني اليك ولما اتصل بها نباء هذا المصاب بعثت اليَّ اولاً بخادمها مستفسرة عن حالي ثم جاءتني متنكرةً حتى وقفت على حقيقة امري ولما ثبت لديها براءتي وظلمهم اياي ذهبت الى دمشق مستغيثةً بالملك العادل تذرعاً واحسرتاه الى تبرئتي وكشف ظلامتي نخانها الدهر وخالفها القدر وهوذا الان سيفاجئني الاجل الموعود قبل ان تعود فجلُّ ما اوصيك به ايها الرفيق انك تترصد عودها سائلاً عنها يوماً بعد يوم من خدم دارها الكائنة في شارع . حتى اذا تيسر لها المعاد سالمةً ادخل اليها وقل لها ان خليل قد احنى رأسه للسيف وهو لاهجٌ بذكركِ شاكرٌ سعيكِ وهو يرجو الاَّ تحزني ولا تبكي فاذا كان اللقاء والاجتماع قد تعذر عليكما بحكمته تعالى

يعد في عداد الاحياء ولقد كان نمى اليه بواسطة احد خدمة عفيفة
ان للمقتول رفيقين كانا يصحبانه الى محل الريب وفي معاهد السكر
وانهما هما اللذان فتكا به في تلك الليلة فرفع الخبر الى الحـاكم
فأُمسك القاتلان وسجنا ولما سُئلا اعترفا بما جنت ايديهما وانمـا
قالا زوراً وبهتاناً ان خليلاً كان لنا في المعصية رفيقاً وشريكاً
وعلى القتل معيناً فصدر الحكم على الثلاثة معـاً بالعقوبة الهائلة
الى القصاص بالاعدام وفي صبيحة ذات يوم دخل السجان على
خليل حزيناً منكسراً وقال له وهو يتشرق بالبكاء واحسرتاه عليك
يا خليل انهم عما قريب سيقتلونك فاجابه خليل بصبر وثبـات
عزيمة لا تبكِ يا اخي ولا تحزن بل كن مسروراً لانفكاكي من
هذا العذاب وارتحالي عن هذه الدار دار الشقاء ماضياً الى من
يحسن جزائي ويكرم مثواي وهو الذي عنده تجتمع الخصوم
ويتميز الظالم من المظلوم وان غدا لناظره قريب فان خفيت براءتي
اليوم عن الناس فسيعلمونها يوم الحشر حيث لا يوجد من ينافق
او يماري في الحكم ولكن وا اسفاه على عفيفة ويالضياع اتعابهـا
وتراكم احزانها ماذا ترى يحل بالمسكينة متى عرفت ان المقدور
نفذ بي قبل معادها فلم تنفعها الاسفار المترامية ولا اقتحام موارد
الخطر فدهش السجان وقال من هي عفيفة التي تذكرها يا صاح

عن اقتراف مثل هذه الوصمة وانكم نظرتم الى هذه الحادثة نظراً منحرفاً التماساً للراحة من عناء التفتيش والتنقيب اللذين بدونهما لا يمكن استجلاء الحقيقة مع انكم مندوبون لذلك شرعاً وعقلاً فاسرعوا اذاً بالافراج عنه واسعو سعي الحازم استكشافاً للائمة القاتلين فانكم المسئولون عن ارواح العباد واقامة القسط من لدننا في هذه الدنيا ومن الحق سبحانه في يوم الدين

وامر باستدعاء المتوكل على تربية حمام الرسائل فحضر فالقى اليه الرسالة وانهى اليه بلزوم ارسالها قبيل الصبح الى عامل سروج فتلقفها ملبياً وخرج مسرعاً وكان خليل قد شفه السقم وبرَّح بهِ الالم وانحله الصبر حتى اصبح كالخيال اذ اصبح فضلاً عما حلَّ فيه من العذاب في قلق مستمر على حبيبة فؤادهِ ومليكة قيادهِ التي استسلمت الى الاخطار وتحمل عناء الاسفار حباً بهِ ورغبة في نجاته وقد انقطعت اخبارها عنه فلا يعلم ان كانت بلغت دمشق سالمة ام عرض لها من غدرات الزمان ما طوح بها الى العدم ثم على فرض بلوغها محل قصدها هل اتيح لها التوصل الى من تشكو امرها اليهِ ويمكنها التعويل في مهمتها عليه ام لبثت هناك معدومة الوسائل منقطعة عن اسباب الآمال ولو لم يكن خليل صحيح التدين صادق الاتكال لذهبت هذه الخواطر بنفسه ولم

الحال رسالة الى عامل سروج بالافراج عن خليل ولتبعث اليه عاجلاً بواسطة الحمام الزاجل تفادياً من ان ينفَّذ به الحكم في العقوبة قبل ان يتيسر عودكِ الى هناك ثم بعد ان تستريحي من عناء السفر نسمح لكِ بالعود مرفوقةً مع ولي عهدنا المفوض منا بتحقيق مساوي العمال والنظر في امورهم فان رأى من خليل كفاءةً للولاية فله ان يستبدل بهِ عامل البلد ويكل اليه اختيار من شاء من افاضل الناس قضاة ومأمورين يحسنون سياسة العباد ويحقون الحق بين الافراد فتكون المدينة في امنٍ من حدوث امثال الحيف والغدر اللذين احاطا بخليل ظلماً وتوانياً اما الان فادخلي الى الحرم الملكي لتتعرف بكِ نساؤُنا وبناتنا وعندهنَّ تلبثين ضيفةً على الرحب والسعة الى ان يؤذن الله برجوعكِ الى بلادكِ فقبلت عفيفة يده وكررت الدعاء بحفظه والشكر لحسن صنيعه وخرجت يصحبها الخدم الى قصر النساء فتلقينها بالاكرام وحسن الوفادة ودهشنَ لما عاينَّ من فرط جمالها ومتانة ادبها وحسن خلالها وعقيب خروجها استكتب الملك ابنه الرسالة الآتية الى عامل سروج .

اما بعد فقد ثبت لدينا بالقراين الواضحة ان خليل بن ابراهيم المتهم بقتل فريد ابن مزهر التاجر براءٌ من التهمة نزيه

الفصل الثامن

في صدور الاذن بالافراج عن خليل

كانت عفيفة تتكلم والملك وولي عهده مصغيان لها اصغاء المعجب بتوقد جنانها وذلاقة لسانها موقنين ان الذي اكسبها هذه الجراءة وقادها الى مواطن الموت راضية انما هو الغرام المستولي على فؤادها والمستغرق جميع حواسها وكيانها فلما بلغت من حديثها الختام هش لها الملك وقال لله درّكِ من محبةٍ امينةٍ وصديقةٍ وفية قد زانها الله بانواع الكمالات والبسها من حلل الادب والفضل ما يندر وجوده عند اكثر بنات هذا العصر اللواتي لا همٌّ لهنَّ الاَّ التلهي والتشهي والخلاعة والقصف ولقد وجب علينا التعجيل بالافراج عن محبوبك وخطيبك الذي طال عليه الامد منتظراً معادكِ حاملةً بشرى خلاصهِ من ظلمات السجن والعذاب ولقد كان نفعكِ بكشف السرعة مساوي العمال أجلُّ من نفع ارشادكِ ايانا في ساحة الحرب الى اقرب السبُل المؤدية الى النصر وخذل الاعداء فانتِ على الحالين تستوجبين الحرمة والرعاية والاحسان وما ادرانا ان الله سبحانهُ قد قدر القاء التهمة على من تحبين لغاية اتيانكِ بهذه الذريعة الى هذه البلاد ليتم على يدك خلاص كثيرين من المخلوقات من ستر الحروب وظلم الغاشمين فلتحرر في

او شراب ثم هيأت اسباب الرحيل وفؤادي يتمزق حزناً وكآبة على حال من احببته نفسي وشاطرته حياتي وشاركته في سروري وبؤسي وانا مفوقة سهام الملام على الدهر الغادر الذي اوقع بحبي هذا المصاب الذي يذهب بروحهِ وشرفهِ ويمحوهما من صفحات الوجود مع انه لم يرتكب اثماً ولم يأتِ جريمة ومما زادني حسرة والتياعاً انه لولا حبه اياي وشوقه الى الاجتماع بي واقدامه على زيارتي لما وقع في هذه البلية واصابته بدواهيها فهو اذاً ضحيةٌ على مذبح محبتي وقتيلٌ في سبيل هواي وهذا ما ساقني الى اليأس والاستسلام الى اخطار الاسفار وقضي عليَّ اخيراً بالتقدم الى هذا الامير الخطير متنكرةً طالبة مشاركته في الحرب الثائرة بينه وبين الثائرين من العرب قائلة بنفسي

اما هلكٌ واما ملكٌ

لاستهلن الصعب او ادرك المنى

فما انقادت الايام الاَّ لصابرِ

هذه قصتي يا رجاء البائسين وملاذ الخائفين وعصمة غوث الملهوفين فتروها ايها الملك العادل واحكم بما يلهمك الله انه خير الحاكمين

مسترشدةً منه عن الذرائع التي يمكن التوصل بها الى نجاته
والافراج عنه فقال لي ان عامل المدينة جاهل عنيد مكار والقضاة
مدفوعون بالكسل وعدم الاستقامة على الاكتفاء بظواهر الامور
فهم مجمعون على تجريمي بهذه الدلائل الطفيفة متجزلون بذلك عن
السعي والتحقيق استكشافاً للحقائق المستورة التي لا تبدو للعيان
ولا يتيسر ثبوتها الأ بمكابدة عناء التحري والسهر والاشتغال
المتواصلة ومن اجل هذا ارى ان مسعاكِ امام هؤلاء العمال
يكون عقيماً وينتهي بالحكم عليّ فلم ارَ عندها خيراً من استشارته
بالسفر الى هذه العاصمة غير الالتجاء الى عدلك والطمع برأفتك
ايها المليك العطوف فاستصوب رأيي ولكن ساءه تحملي عناء
السفر والاغتراب واقتحام موارد الخطر في سبيله ورأى ان يحبب
لي الرحيل رحمةً بي وشفقةً عليّ فلما رأى انني مصممة على التغرير
بنفسي حباً بهِ وحماية له اظهر رضاه وهو باكٍ داعٍ لي بالتوفيق
واشار عليّ بان اتزيى بزي الرجال ليلا يطمع بي الانذال من ابناء
السبيل فتنزع مطامعهم الى الاعتداء عليّ توصلاً لامتلاكي
وهكذا استخرت الله فيما عزمت وفارقته تاركةً اياه يقاسي الهوان
والعذاب وهو مسجون وحده في سرداب ضيق محظور على الناس
محادثته ومخالطته ليس من يعينه ولا من يواسيه ولا يتفقده بطعام

بجثة قتيل غريق بالدم فاصاب ثوبه شيء منه وما كاد ينهض فيتم سيره حتى ادركه رجال الشرطة فامسكوه وسألوه عن المقتول وهو شاب في مقتبل العمر فانكر معرفته وتنصل من التهمة واوضح لهم باجلى بيان واوضح دليل انه بريء من دمه لا سيما وهو مجرد من السلاح لا عصا بيده ولا سكين في جيبهِ واقام لهم البرهان بسبق سيرتهِ المحمودة وحسن تزكيته المشهودة والحّ عليهم بان يعنوا بالفحص والتحري توصلاً الى القاتل قبل ان تختفي آثار الاستدلال بمرور الوقت غير مختفين بالتوهم انه هو المقترف لهاته الجريمة بمجرد وجود شيء من الدم على ذيله ومرورهِ من ذلك الطريق ولكن هيهات هيهات فانه كان كالكاتب على صفحات الماء او النافخ في غير ضرم

لقد اسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي
ونارٌ ان نفخت بها اضاءت ولكن انت تنفخ في رمادِ

ومع ان عامل المدينة الذي كان محفوفاً بالقضاة وارباب المناصب وقد سمعوا من فم خليل كثيراً من الادلة على براءته ونزاهته قد اصم الكل آذانهم عن سماع تضرعاتهِ واستغاثته وزجوا به الى سجنٍ مظلم بعد ان غلوه بالحديد ولما طال بهِ المطال ونمى اليّ الخبر توصلت سرّاً الى الاجتماع به فعزيته على مصابه وشجعته

الطريق افكر في وحدتي وابتعادي عن الخلق واحتياجي الى معين امين اشكو اليه حزني واناجيه بما يفرج كربي ويسلي همومي اذ مرَّ فتى وسيم الطلعة تلوح على مخائلهِ امارات الرزانة والحكمة والوقار فنظر اليَّ باحترام وحيَّاني بأدب فجاوبته على تحيتهِ وقد اشعرت من نفسي بالميل اليهِ والنزوع الى الاجتماع بهِ والقرب منهُ فدعوته الى زيارتي فلبى فلما خلوت به وحادثته تأكد عندي انه وحيد اقرانهِ ذكاءً وادباً ونادرة زمانه علماً ومعرفةً قد اضاع صبوته بالدرس والاجتهاد وطلب المعارف فاصاب منها القسم الاوفر والنصيب الاكبر وهو على حداثة سنهِ فصيح اللهجة متين الحجة راضي الاخلاق خبير في احوال الدهر تألفت اجزاؤه من عناصر الرقة حتى كاد يشرب كالماء ظرفاً وسلاسةً وسهولة اخلاق فسألته عن حالهِ فعلمت من جوابهِ انه نشأ على شا كلتي يتيماً ولكنه بلا مال فاكب على المطالعة مجتهداً حتى حصل من العلم ما اصبح مدار رزقه وكسبه وان اسمه خليل بن ابراهيم فتوثقت بيننا اواخي الوداد وتمتنت اسباب الالفة والاتحاد وبعد ان استأنف زيارته لي خطبني وكان ذلك جل متمناي فطاوعته وتعاقدنا على الزواج ضاربين اجلاً للزفاف موعوداً حتى اذا ازف الوقت جاءني في احدى الليالي زائراً فعثر اثناء مشيهِ

استسلمت الى اليأس فاصبحت الدنيا في نظري كالجيفة وحبب الله الي مقتها والابتعاد عن ملاذها فكتبت على باب حجرتي «السلامة في الاعتزال» ووكلت بعقاري من يصونه ويحسن استثماره وهو خادم امين نشأ في بيتنا وشب على محبتنا واصبح شغلي الشاغل كتاباً اتصفحه وحكمةً اتلقنها وفائدة استخرجها وتاريخاً اقف عليه واسترشد بحوادثهِ وانا في خلال ذلك اراوح بين البكاء والندب حزناً على من تركاني في دار الشقاء والفناء يتيمة وحيدة لا اخ لي ولا اهل ولا عون ولا سمير وذهبا عني الى دار البقاء يحجبهما عني حجاب الابديَّة الكثيف بعد ان كانا موضوع احترامي ومحبتي ومحل آمالي وسعادة استقبالي وما برح هذا الشأن شأني وانا بعيدة عن ضوضاء هذا العالم انفرد مختفية في زوايا قصري عن كل ناظر حتى مرَّ عليَّ بضع سنين كنت فيها آمنةً من حوادث الزمان منقطعةً ضمن دائرة خدامي واعواني عن كل انسان كانني في برزخٍ بين اهل الدنيا والآخرة لا احسب نفسي من احدى الفيئتين فيا لها من معيشةٍ ما كان اهناها وان كانت مشوبةً بالاحزان ممزوجة بمرارة التحسر على انها لم تدم وهيهات ان تدوم لبني الدنيا حال او يستقر للبشر امر فانني بينما كنت ذات يوم جالسة بالقرب من شرفةٍ في قصري تطل على

على بدر محياها الآخذ بالقلوب لطفاً وحلاوةً فانزهل الملك وابنه اي انذهال ووقفا مرتاعين متعجبين وقالا ما هذا أهل نحن في منام او خاننا النظر فاصبحت الاشباح تبدو على خلاف حقائقها وما الذي جرى بكِ ايتها الفتاة ان صح انك فتاة بان تتزيي بازياء الرجال وتغادري العيش في ظلال القصور كسائر ربات الحجال راكبةً غارب الاسفار مقتحمةً بوادر الأخطار كاتمةً عنا حقيقتك ونسبكِ متسميةً بغير اسمكِ مغررةً بنفسكِ في الدخول بمواقع الحرب والصدام التي تهلع لهـا قلوب صناديد الرجال وبواسل الابطال فضلاً عن الابكار النواهد الناشئات في النعيم والمتربيات على مهاد الدلال ألا عجلي ايتها الفتاة ببيان هذا السرّ الذي يكاد يكون ضرباً من السحر فان الحيرة قد تولتنا والذهول قد حال بيننا وبين عقولنا حتى لم يعد بالوسع الصبر ولو ساعة دون اباحة السرّ عن دواعي ارتيابنا الباعث على مزيد اضطرابنا فقالت عفيفة عفواً يا سيدي فان الامر عاديٌّ وهو دون ما تتوهمان ومتى عرفتما السبب بطل العجب

اني نشأت في مدينة سروج من ابوين مسيحيين فاضلين قد عنيا بتهذيبي واحسنا تثقيفي وتأديبي ثم ماتا عني وانا دون الرشد تاركين لي مالاً طائلاً ونعمة واسعة فحزنت لفقدهما حتى

اذ انه محتوم على كل فردٍ من افراد الرعية الصادقة النية ان يبذل عند حدوث الشديد مجهوده غير باخل بنفيسهِ ونفسهِ في سبيل حماية الوطن والذود عن الذمار ووقاية حوزة الملك من بوادر المعتدين المارقين ايًّا كانوا وحيثما وجدوا فما انا اذًا جديرٌ بالشكر ولا اهلٌ للاحسان لانني لم افعل الاَّ ما يترتب عليَّ ويدعوني اليهِ الواجب ولكن ابت سجايا مولاي السلطان المنطبع على الرأفة والجود والمعروف باللطف والحنان الاَّ ان يقدر خدمتي اكثر من قدرها ويحبوني في مجلسه فوق منزلتي فهوذا انا ادعو الله سبحانه ان يجعل التأييد والفوز حليفه والسعادة والهناء نديميه وان يجعل النصر خادمًا لاجناده والخزي والعار من نصيب اعدائهِ وحسادهِ اما سيدي الامير المنصور فقد طوق جيدي بعقود مننهِ وافضالهِ ومكنني على حداثة سني من ان ادير قيادة الجيش ورحى الحرب بدون ان يكون عالمًا بحقيقة حالي فقد توسم بي الخير اذ تفرس بوجهي النزاهة وحسن القصد فوثق بي وعوَّل عليَّ زاعمًا انني من ابطال الحرب والجلاد الذين عركتهم الايام وحنكتهم الحوادث جاهلاً انني فتاة ضعيفة قد نشأت في خدري وراء الحجاب قالت هذا عفيفة واسفرت اللثام عن وجهها الوضاح رافعةً خوذتها عن رأسها اللطيف فانسدل فرعها الحالك السواد

البلاد نهباً وتخريباً لا يرعون ذمةً فكان ذلك اليوم عند الدمشقيين عامةً عيداً مشهوراً برزت فيه الحرائر من اخدارهنّ ونفرت الرجال من حوانيتهم واسواقهم الى العراء فرحين مرحين منشرحي الصدور يتشوقون الى لقاء ابن مليكهم وذويهم الذين دفعوا عنهم هذه النازلة وقفلوا فائزين غانمين وما زال الموكب في سيره العجيب حتى بلغوا قصر الملك العادل وهنالك استقبل ابنه المنصور فرحاً مهنئاً اياه بالفوز سائلاً في الحال عن الامير ناصر فتقدمت عفيفة مقبلةً يديه وهي في لباس اكابر القواد فرحب بها وشكرها رافعاً منزلتها وامر بافراد قصرٍ لنزولها تستكمل فيه جميع اسباب الراحة والاكرام اما هي فشكرت وجلست متأدبةً حيث يليق بها الجلوس حتى انصرف اركان المملكة واعيانها ووفود المهنئين ولم يبقَ في المجلس غير الملك وابنه عندها قامت عفيفة على قدميها واستأذنت الملك في الكلام ملتمسةً ان يمسك الباب ويمنع الناس من الدخول الى ان تفرغ من حديثها فأمر الملك الحاجب الاكبر الاَّ يمكن احداً من المثول امامه ولا يستأذن لاحد ثم آذن لها في الحديث فقالت لقد رأيت من انعطاف سيدي اليَّ وعنايتهِ بي فوق ما ارجو واكثر مما اتوقع مع انني لم اقم بما قمت بهِ الاَّ نهوضاً بواجبات الوطنية وايفاءً لفرائض التابعية

والجيش المجاهد وما زال القادمون يتلاحقون وكل فئةٍ تصل تؤدي الى الامير ومن معه سلامها حتى اصبح عدد الوافدين يزيد على الالوف وكلهم يتناقلون ما اتصل بهم وانتشر في مدينتهم من انباء الامير ناصر ما يقضي على عقولهم بالذهول ويعنيها بالخمول وكنت تراهم متسابقين متدافعين نزوعاً لمرآه والتعرف بهِ فزادهم عجباً اذ رأوا وجهاً كالهلال بالحاظٍ تسحر الرجال فضلاً عن ربات الحجال تركب على جسمٍ كافوريّ الاديم تهفو الى ملامستهِ خطرات النسيم يومض البرق من اطواقـهِ وتتساقط الشهب من احداقهِ فسبحوا من خلق فسوّى وقالوا مـا هذا بشرٌ ان هو الاّ ملاك كريم ولما توسط هذا الموكب البهج ارض الغوطة المشهورة بجمال رياضها وكثرة حياضها وتدفق جداولهـا وتكاثف ادواحها وخمائلها بدت الالوف من الخلق رجالاً ونسـاءً شيوخاً وولداناً وهم منتشرون في ارجاء تلك المروج المدبجة بانواع الزهور انتظاراً لقدوم هذا الموكب الحافل وهم خليط وصنوف من اهل المدينة وما حولها من الارياض والقرى تبدو على وجوههم امارات الهناء والمسرة بما اتصل بهم من انخذال العصـاة وتشتيت شملهم واندفاع شرهم واذاهم اذ كان الاهلون على بكرة ابيهم في وجلٍ وخوفٍ على دمائهم واموالهم من هولاء المشاغبين الذين عاثوا في

الدور المجيد من رحلتها العجيبة ذات الاتفاقات الغريبة فتذكرت خليلاً وما يكابده في السجن من العذاب والتضيق وعللت النفس بقرب معادها اليه مبشرة اياه بالنجاة واعلان برآءته على ملاء الناس ففاضت عيناها بدموع الفرح وبعثت باحد الجند الى رئيس القافلة ومن معه فجاؤها باثقالهم وامتعتهم ودوابهم وهم يكادون يطيرون سروراً لانفراج الازمة وزوال العقبة واستحكام الامن في الطرق على يد اميرهم ورفيقهم المحبوب فقضى الجميع سائر يومهم وسواد ليلهم في ذلك المرتبع وقبيل الصبح اذن القوم بالرحيل رجوعاً الى دمشق الفيحآء فاستوى الاميران ناصر ومنصور على جوادين كريمين ونشرت على رؤوسهما الرايات والالوية يحيط بهما الحجاب والخدم وسار من ورائهم الجيش صفاً صفاً يقودون من خلفهم الاسرى من زعماء العصاة فكان الموكب حافلاً بهجاً تخطف مهابته الابصار وما برحوا سائرين مجدين حتى غروب الشمس فنزلوا للمبيت ولم يبقَ بينهم وبين الغوطة الا مسافة بضع ساعات فقطعوا الليل بين السمر والنوم وقبل ان يندلق سيف الفجر من قرابهِ ويمزق الظلام رثيث جلبابهِ نفخت الابواق وضربت الطبول وعلت الضوضاء وتصاهلت الخيول ائذاناً بوصول الملاقين من اعيان دمشق وكبرائها استقبالاً للامير العائد

العاجل والنصر الكامل وما تعالى النهار وآذنت الشمس بالزوال حتى سكنت جلبة القوم وهدأ ثائرهم واصبح العرب بين قتيل مرمل واسير مشدود فحلوا الاطناب وقوضوا القباب وتحولوا عن ذلك المنزل الذي تحول الى نهرٍ من الدماء تسبح فيه جثث الاشقياء منحرفين الى سفح الجبل وهنالك ازمعوا على الاقامة بعد ان تبادلوا تهنئة الفوز والسلامة فبسطت لهم السرادق تحت ظلال المنهل ونصبوا لهم المضارب والسرادقات على اطراف الينابيع والجداول واوقدوا النيران متسابقين الى نحر الحملان وطيب الالوان كانهم في مهرجان واول شيء بدأ بهِ الامير منصور ان بعث الى ابيهِ برسولٍ بشير اوصاه بان يستحث السير وينتهب الطرق غير حائدٍ ولا متعرّجٍ حتى يصل الى القصر الملكي فيصدع بالامر وينهي الى الملك ما أُوتي باذنه تعالى من اسباب النصر مبشرًا اياه بقرب المعاد الى الوطن تحت الوية العز والفخر يصحبه امير سروج بهجة الدهر وغرة جبين هذا العصر

ثم مدت الاسمطة وبُسطت الموائد وتألب القوم على حسب مراتبهم فاكلوا ما شاؤُا هنيئًا مريئًا وجوانحهم ملأى من السرور نخص منهم بالذكر عفيفة التي انتعشت آمالها بنوال الامنية التي لاجلها ركبت الاخطار وعانت بلايا الاسفار وانتهت الى هذا

حتى جرت الدماء على اديم الصعيد فعاد بلون الشقيق ثم استحيوا من كتب له بطول الاجل منهم فشدوا وثـاقهم وضيقوا خناقهم حتى بلغت ارواحهم الحناجر وكلهم ينادون ويستغيثون وما من مجيب

اما الامير ناصر الذي كان قائد الكتيبة ومدبر المكيـدة فكان له في هذه الواقعة القدح المعلى والسهم الفائز فلا ترى الاً عيونًا اليه رامقة ولا تسمع الاً السنة عليه باثناء ناطقة في ذلك اليوم وكلهم يعترفون له بمزيد التفرد عن النظراء والاكفـاء وانه خير من اقلته الغبراء واظلتـه السماء وهو يصول على جواده ويجول ويدير رحاة الحرب تحت سرادق من الاسنة والنصول وعيناه ترمي عن قوس حاجبها سهامـاً تصيب القلوب فتذيب وتصمي فتدمي

رنا وانثنى كالسيف والصعدة السمرا

فما اكثر القتلى وما اكثر الاسرى

ولا تسل عن حال الامير منصور الذي كان يحوم حول الغادة السروجية وهو مأخوذ بسحر هاتيك الشمائل معجبٌ بمـا اودعه الله في تلك الذات البديعة من انواع الفضائل ووجهه طافح بالنور استبشاراً بما انزل الله على يد الامير الغريب من الفوز

ولم يمضِ ساعة حتى اصبحوا بين خيام الاعداء متفرقين ايدي سبا يخاصم بعضهم بعضاً على مقاسمة السلب واغتنام النفائس لا وازع لهم من شيوخهم ولا رادع من انفسهم يحسبون انهم من المفاجأة والغدر في حرزٍ حريز وامنٍ مكين شأن الاغرار الجهلة من الرجال الذين تبطرهم النعمة وتغرهم سوانح الصدف فيزعمون ان السعد عبدهم والزمان حليفهم والتقادير تسير بامرهم وعلى هواهم فما راعهم الا اللهيب يسطع بين بيوتهم والدخان يتسردق فوق معسكرهم والفرسان مقبلة نحوهم كالبنيان المرصوص تحتهم الخيول العربية تتراقص وتحمحم شوقاً للكر والفر في ساحة الحرب والطراد والابواق في ايدي الحجاب تقلب الفضاء بصوت نعيرها استدعاءً للجيوش المستترة في شعاب الاطواد فطارت قلوبهم من الهلع وعلموا انهم مأخوذون فاصبحوا يدورون في وسط المعسكر حيارى ولا يدرون اين يذهبون او كيف يفعلون اما الغنائم والاموال التي كانوا قد انتهبوها وحملوها على عواتقهم فالقوا بها الى الارض احمالاً وكراديس فاصبحت معثرةً لهم وهم يركضون يتساقط بسببها بعضهم فوق بعض وهم لا يعون حتى اذا حانت الساعة وازف نزول البلاء احاط بهم الجنود احاطة المعصم بالسوار والقمر بالهالة فاذاقوهم عذاب الحريق واستلحموهم بسيوفهم

واثقين بقوتهم معولين على خيانة الوزير خادع ومواعيده فناموا تلك الليلة وهم قريرو العين ناعمو البال يؤملون رجوع رسولهم قبل الفجر موعزاً اليهم بالهجوم على المعسكر وامتلاكه واستسلام ابن الملك وجنده اليهم اذلاء صاغرين ولم يدر في خلدهم ان الاحوال بهمة الفتاة السروجية تحولت والامور تغيرت وان البلاء اصبح لهم راصداً والموت بارواحهم منتظراً وعليهم متشوقاً فلما بدت طلائع الفجر هبوا من رقادهم وقدموا لخيولهم العلف منتظرين عود الرسول وصدور الاذن من امرائهم بالركوب والغارة على عساكر الشام حتى اذا بدا حاجب الشمس من المشرق والقى اشعته على الغرب نظروا الى المعسكر فرأوهُ خالياً من الرجال مشحوناً بالزاد والمتاع والاثقال خيامه لا تزال منصوبة وخيوله في المرابط مجنوبة ونيرانه مشبوبة فترجح لديهم انهم اركنوا الى الفرار خوفاً من ذلّ الاسر والعار تاركين اموالهم وذخائرهم غنيمة باردة للعرب الثائرة فتراكضوا متسارعين وهم يتزاحمون بالمناكب ويتدافعون بالايدي وصولاً الى مالٍ ينهبونه ومتاعٍ يسلبونه لا يلوون على شيءٍ تاركين وراءهم الخيام خاويةً وبين اوتادها مرابط الخيل اللاهية بقضم علفها وسلاح كلٍ منهم مطروح الى جانب في مراقدهم لا يحسبون لعاديات الايام حساباً

السروجي قد دبر مكيدة ستكون ضربة قاضية على العرب وذريعة لقمع الثورة وعود الجيش مظفراً منصوراً وان الامل معقود بالنجاح والعود غداة غدٍ ولذلك لا يرى من حاجةٍ لحث الجنود من جديد وارسال النجدات ثم بعد ان سافر القائد ومعه الوزير مشدود على جواده جمع الامير ناصر بامر ابن الملك نخبة من الفرسان لا ينقص عددها عن ستة الاف وذهب بهم تحت امرتهِ بعد ان وضعوا على حوافر خيلهم من اللبد ما يمنع سماع وقعها اثناء المسير وكمن بهم في غورهم هناك بعيد مقدار ساعة عن معسكر العرب شرقاً ثم امر ابن الملك سائر العسكر بالرحيل خفيةً والتفرق في شعاب الجبل وواديهِ حيثما يلبثون هناك مستترين الى ان يسمعوا صوت الابواق من المعسكر وعندها يعيدون الكرة منضمين الى كتيبة الامير ناصر

وبلغ الامير اوامره هذه الى الجيش بواسطة قوادهِ عملاً برأي الامير منصور وتدبيرهِ ولم يمضِ الهزيع الثاني من الليل حتى اصبح المعسكر خالياً من الانيس لا يسمع فيه سوى صهيل بعض الخيل الضعيفة المتروكة قصداً هناك تمويهاً على العرب واخفاءً للمكيدة واما الامير وحجابه فتبعوا آثار الامير ناصر حتى انضموا اليه في الكمين قبل مطلع الفجر اما العرب الذين كانوا

حاله فاقر انه رسول من مشايخ العربان العصاة آتٍ الى الوزير
خادع برسالة ففتح الامير الكتاب فرأى فيه مطالبة للوزير
بانجاز وعده السابق من تسليم ابن الملك وقواد جيشه الى ايديهم
اسرى ويسألونه التعجيل بالامر قبل ورود النجدات من دمشق
فسقط في ايدي الوزير ولم يسعهُ الاَّ الاقرار بجريمته والاعتراف
بانه اخذ من سلطان العراق مئة الف دينار بمقابلة تدبيره هذه
الثورة المراد منها نزع الامنية من البلاد واستيلاء الضعف على
ارضهِ وتمهيد السبيل لذلك الملك لغزو البلاد بلا عناء في اهراق
الدماء على ان يكون خادع وزيره ومستشاره ووكيله على بلاد
الشام وحلب والجزيرة فأمر الامير في الحال بشد وثاق الوزير
والرسول معاً وارسالهما مخفورين الى دمشق تحت اجنحة الليل
ووكل الى احد القواد امر ايصالهما الى ابيه بعد ان سلمه كتاباً باسم
الملك اتى فيهِ على كيفية مجي الامير ناصر السروجي الى المعسكر
واكتشافه على خيانة خادع واقرار هذا بما جنت يداه بعد ان
وجد لديه من المخابرات الخطية ما لم يعد معه سبيل للتنصل منه
والاصرار على الانكار ثم بعث له من ضمن الكتاب بتلك الاوراق
تاركاً لحكمته ورأيهِ النظر في عقوبة وقصاص الرسول الوارد
عليه من العصاة ثم يشير له في آخر الكتاب بان الامير ناصر

بعسكرنا وهم محصورون فيهِ مشاة وبغير سلاح فيستسلمون لايدينا صاغرين او يموتون بحد سيوفنا وهم اذلاء معدومون من وسائل الدفاع اما الامير فكان يسمع كلام عفيفة باصغاء وعلامات الاستحسان والذهول بادية على محياه فلما انتهت من كلامها قال لها لقد اتيت صواباً واحسنت رأياً ايها الشاب الحازم المجرّب وسأعمل منذ الان برأيك الذي يدل على سعة عقلك وحسن اسلوبك وفي الحال بعث حجابه فقبضوا على وزيره وهو نائم غافل عن حوادث الدهر ثم استدعى اليهِ قواد الجيش وباشارة من عفيفة ذهب بعض الحجاب فأتى بصناديق وخزائن الوزير ففتحوها بحضور القواد واذا فيها كثير من الاوراق المنطوية على المخابرات الجارية بينه وبين الاعداء الدالة على خيانتهِ وسوء نيتهِ فاستحضروا الوزير مكتوفاً الى هذا المشهد الحافل واروه ما وجد في صناديقهِ من الاوراق المثبتة خيانةً لملكهِ ووطنهِ فانكر وقال من المحتمل ان بعض الحساد والمناظرين قد سعى مع احد الخدم حتى ادخل هذه الاوراق الى خزائني ونمَّ لي الى الامير لكي يلقيني تحت طائلة غضبهِ فما اتمّ كلامه حتى دخل بعض الحراس وهم قابضون على رجل من العرب وجدوه قريباً من خيام الوزير وفي جيبهِ كتاب مختوم فسأله الامير عن

الوزير خادع من امر التسليم فقالت له يا مولاي انني مرتاب من سياسة وزيرك ولا اقدر ان ابدي رأيًا قبل ان تبعده عنك وتحجب عليه لنهاية هذه الحرب والاَّ فلا نأمن من غوائل كشف الاسرار وتبليغها الى الاعداء ففكر الامير ساعةً ثم التفت الى عفيفة وقال انني سأفعل ما اشرت بهِ ايها الفارس ولكن هات ما عندك من التدبير لنجاتنا وهلاك هولاء الخصوم فتبسمت عفيفة وقالت لقد خطر لي ان نوعز سرًا الى الجيش بان يتفرق سرًا تحت اجنحة الظلام فيستتر في اطراف هذا الجبل وما في باطنهِ من الشعاب والاودية تاركاً الخيام والاثقال والزاد في المعسكر كما كان ثم تضعون كمينًا مولفًا من شجعان الفرسان في الغور المجاور لهذا السهل حتى اذا اصبح الصباح نظر العربان الى المعسكر خاليًا من الرجال مشحونًا بالزاد والمال توهموا انكم لجأتم الى الهرب تحت اجنحة الليل فيتسارعون الى الغنيمة والسلب وهم غير متحوطين ولا مسلحين تاركين خيلهم واثقالهم واسلحتهم في معسكرهم فمتى رأيناهم توسطوا الخيام وتفرقوا في اطرافها طلبًا للنهب والغنيمة تأمرون الكمين بالخروج من محلهِ والهجوم سرًا على معسكر الاعداء فيضبط خيولهم واسلحتهم ويطلق النار في خيامهم واثقالهم فما يشعرون الاَّ والنار لعبت في اطراف معسكرهم والفرسان محيطة

عتبة ما يكننا العادل مستغيثين مستنجدين واثقين من رحمته بدفع الضر وكشف الظلام فركبت جناح السفر واتيت مع رجالي على عجل واذ بلغنا هذا السهل رأينا العساكر زاخرة والاهالي نافرة والعدو يعبث في الارض فساداً فلجأنا الى هذا الجبل القريب منكم خشية ان يصيبنا نصيب من البلاء الواقع وهنالك اخذت ارصد حركات الجيوش ومهاجمات الاعداء فعلمت ان الحرب تدار من جهتكم بيد ضعيفة وعزائم متراخية وان فرص الكيد بالعدو كثيرة متوفرة ومع ذلك فليس من ينتهزها ولا يسعى وراءها مع ان الحرب خدعة وهولاء الوحوش لا يؤخذون بالبراز والصدام بل بالحيلة والتغرر فاخذتني الحمية وقادتني الغيرة على مصلحة الملك والوطن ان آتي بنفسي الى هذا المعسكر واتشرف بمقابلة قائده الهام مبيناً له ما يخامرني من الريب والشبهة بوجود خونة في المعسكر يسهرون على اذلال الجند وخذلانهم جرًّا لمصلحة لهم مع الاعداء اذ لو لم يكن هذا التيسر لهذا الجيش العظيم بادنى حيلة ان يفتك بهولاء الصعاليك السخيفي العقول وبرهاني على ما اقول سيتضح في هذا الليل اذا تنازلتم لقبول مشوراتي وآرائي والعمل بموجبها فحسن هذا الكلام ووقع من قلب الامير اعظم موقع واخذ يقص على شفيفة جميع حوادث الحرب وما اشار به اخيرا

وعندي انه من الحزم ان نسلم ذاتنـا الى العربان اسرى حربٍ تخلصاً من الهلاك واستبقاءً لحياة العباد وبعد ذلك يفعل الله ما يشاء ولعل سيدي الملك اذا عرف باسرنـا اتى بنفسه مع جيش جرار فيسعى باستخلاصنا ثم يعود بنا مظفراً منصوراً فاستاء الامير وهالهُ الاسر وقال ان الموت قتلاً خير من تسليمنـا نفسنا هولاء الصعاليك اللئام فبأي وجهٍ القى ابي بعد هذا الذل وماذا يقول عنا الملوك المجاورون اذا سمعوا بهذه الحطة الذميمة فدعني الان الى الغد لافكر بما ينبغي فانصرف الوزير وبقي المنصور وحده مفكراً مهموماً متحيراً واذا بحاجبه دخل عليه واستأذن بدخول فارسين غريبين يطلبان المثول امامه لامرٍ مهم فاذن لهما واذا بعفيفة وخادمها دخلا مع الحـاجب وهما متلثمان فوقف يوسف حذاء الباب بين الحجاب وتقدمت عفيفة بلباس الفرسان وحيتهُ بادب وطلاقة لسان داعيةً له ولأبيه بالعز المكين والنصر المبين فهش لها الامير وسألها عن موطنها وحالها وقصدهـا فجثت عفيفة على ركبتيها وقالت اطال الله عمر سيدي الملك ووهبهُ ما يتمناه اننا من مدينة سروج التابعة لدولتكم الرائعة في عدلكم المستظلة في كنفكم ومن خيرة اهلها واعيانهم وقد حدث عندنا حادث في هذه الايام رأينا به من ظلم العمال وكيد الخصوم ما الجأنـا الى قصد

يعرف كيف يصطاد المال ويحتال على جمعه مهما كانت الوسائط دنية والظروف صعبة يصطنع المعروف مع من يخافه ويحسن له المقال لابساً لكل حالة لبوسها وهذا ما جعل الملك ان يعتمد عليه ويعول على مساعدته لابنهِ الذي كان لم يزل حديث السن عديم الخبرة في احوال الزمان معتمداً عليهِ بامورهِ فكان الوزير خادع يستميله بانواع المدح والتمليق ويتصرف به كيف شاء وكان ممالساً احد الملوك المجاورة لايقاع الفتن في مملكته جرًّا لمنافعه الدنيئة وبدسائسهِ وخيانتهِ قامت هذه الثورة التي اهلكت الرجال والمال وبسعيه كان العربان ينقلبون على العساكر كل ذلك والامير غافل عن حاله وهو يمتثل اراءه ويجري بموجبها آمناً مطمئناً شان الاحداث الاغرار الذين لا يدركون الحقائق وكان قبل وصول عفيفة الى المعسكر قد اغرى الامير على استمداد النجدة من ابيهِ والبقاء في مكانهم لوصول العساكر المنتظرة يقصد بذلك ان يهجم العربان عليهم في ذلك السهل وهم بحالة الضعف والقلة فيبيدونهم عن آخرهم او يستأسروهم ولما احس الامير بالخطر الملم بالجيش استدعى الوزير وفاوضه في الامر وقال له ان العربان على وشك الهجوم علينا ونحن بهذا السهل ولا نأمن ان يقتلونا عن آخرنا فقال الوزير ان العاقل اذا اعترضه شران اختار اصغرهما

تيسر لي الاجتماع معه سعيت في تدبير امره ومتى وفق المولى وكان النصر على يدي قضي الامر ونلت حظوةً ومكانةً ويكون منتهى سعادتي وسعادتكم فاستحسن القوم رأيها وتعجبوا من علو همتها فودعتهم وقالت لهم عليكم ان لا تبرحوا هذا المكان ليثما يوفق الله عملي فاجابوها بالسمع والطاعة اما هي فانتظرت الى ان خيم الظلام ثم خرجت من خيمتها في ملابس الرجال متقلدةً بسلاحها وبرفقتها خادمها يوسف الذي فعل كما فعلت وانحدرا من الجبل حتى انتهيا الى معسكر الملك فنظرا من بعد خيمةً تمتاز عن سواها يدور حولها العبيد والخدم فعلموا انها خيمة الامير فقصداها اما الامير منصوراً ابن الملك العادل فانهُ كان مشتغلاً بالقتال مع عشائر العرب منذ عدة ايام دون ان يحرز نصراً يوماً واحداً بل كان النصر دائماً حليف الاعداء حتى هلك في عسكر ابيه عدد كثير فيئس واضطرب واصبح مهموماً حزيناً ولقد كان يصحبه من اهل الراي والحزم وزير اسمهُ خادع كثير الحيل قليل الوفاء بعيد عن الامانة ولكنه فصيح اللسان عارف بامزجة الناس وطبائعها يحسن الرياء والملق ويتزلف بلطافة اسلوبه الى الناس فيرضيهم بالظواهر الكاذبة ولذلك كان مقرباً من الملك المخدوع بترقشاته وطلاوة لسانه وهو مع ذلك اطمع من اشعب واروغ من ثعلب

ثم يقول ماذا جرى على عفيفة يا ترى واين اصبحت وهل مقيمة على العهد ام اثر بقلبهـا البعد فسلت الود اولاً فانتبهت عفيفة من منامها منزهلة من هذه الرؤيا وتذكرت خليل وسجنه ومعاهدتها معه فتجددت قواها وزال من من افكارها ما كان حط بعزمها قبل النوم وعزمت على بذل القدرة والجهد في تدبير وسائط خلاصهِ فدعت خادمها يوسف وامرته ان يحضر لهـا الطعام وبعد ان تمم ما ارادت امرته ان يدعو رئيس القافلة ورجالها فاكلوا جميعاً واخذوا يتفاوضون في امر تخليصهم من هذه الورطة الوبيلة

الفصل السابع

في نزول عفيفة من الجبل واجتماعها في ابن الملك

فقالت عفيفة قدر الله علينا ايها الرجال بمرافقتكم في هذا الطريق الى ان حصل ما حصل وانا اظن ان امر هذا الحرب يطول نظراً لما فهمت من العجوز التي اخبرتني عن تفصيل الحرب واسبابها واظن ان ابن الملك هو قائد الجيش في هذا الحرب وهو على ما يلوح قليل الخبرة ولا يوجد معه من رجال الحزم والرأي من يوازره ويرشده الى صلاحهِ وقد رأيت ان انحدر من هذا الجبل تحت ظلام الليل منفردةً واطرق خيمة ابن الملك فاذا

ثم خاطبت نفسها قائلة كان لي غنى عن هذه المشقة وكاد ان يضعف عزمها وحيث كان مستوليًا عليها التعب القت نفسها على وسادة فاخذتها سنة النوم ورأت خليل في المنام يتظلم من الدهر وينشد هذه الابيات

حيثما كنت قد وقاك الهي
ايها الراحل المقيم بقلبي
ولك الله حيث امسيت جارٍ
حافظ من صروف الدهر وخطبِ
غبت فاستوحشت لقربك عيني
واستهلت مدامعي اي سكبِ
ليت شعري باي ربع وارضٍ
انت مستوطن بدار وتعبِ
ان يكن شاربًا لماء حياةٍ
خضر الورد بالمدامع شربي
او سهدت الرقاد يومًا بجمر
من سهادي بين الفراش وجنبي
كل شيء الاّ فراقك سهل
عند قلبي وغيره غير صعبِ

عند عموم رجال القافلة فاستولى الرعب على قلوبهم وداموا في المسير بين مصدقين ومكذبين حتى نظروا عن بعدٍ جيوشاً كثيرة العدد فزال ريبهم وتحققوا الخطر فاقترب رئيس القافلة من عفيفة وقال لها يا مولاي انظر امامك تجد صدق ما اخبرتك عنه العجوز اما الان فلم يعد في الامكان ان نخطي خطوة واحدة الى الامام قالت عفيفة ماذا نصنع اذاً ألا يوجد طريق آخر نسلكهُ فاجاب رئيس القافلة لا غير انه يوجد ها هنا جبل اذا ذهبنا اليه لا بد ان نجد فيه محلاً للاختفاء لربما يفرج كربنا رب السماء اما بمصالحة الطرفين او بانتصار احدى الطائفتين فيمكننا حينئذٍ ان نلتجي الى الجهة المنصورة ونأمن على ارواحنا فاجابته عفيفة الى ما اراد مسلمةً امرها الى رب العباد وفي الحال امر رئيس القافلة رجاله بالتعريج عن الطريق نحو الجبل الى ان صاروا متسلقين الصخور والاوعار حتى بلغوا بعد الجهد والتعب قمة الجبل ففكوا الاحمال بظل الصخور قرب عين ماء تنفجر من بعض الكهوف وجلسوا هناك جميعاً وهم ينظرون الى ساحة الحرب بدون ان يراهم احد ولما نصب يوسف الخيمة لعفيفة دخلتها فارتاحت قليلاً واخذت تفكر بما عاينته من مشقة الطريق وعذابه وبما اعترضها من الصعوبات في سبيل قصدها

والمزارع وشرعوا ينهبون الاموال ويستبيحون الرجال وييتّمون الاطفال ويقطعون السبيل حتى اتصل الخبر بالملك فاهمهُ وارمقه وجهز عسكرًا جرارًا تحت امارة ولده المنصور وارسله لقمع الفتنة فخرج بعسكره الذي لا يقل عدده عن الخمسين الف مقاتل واقام القتال نحو خمسة عشر يومًا فلم يجده نفعًا لان العربان كثيرون جدًا وهم شجعان واباسل وليس مع الامير من يحسن قيادة الجيش ففتك بهم هولاء الهمج فتك الذئاب بالغنم فضعف عزم ابن الملك واخبر اباه بما لحق بالجيش من العطب فامده بالنجدات ولكن على غير طائل وهو الان مرتبك في امره اما العرب فاستصغروا شأنه وطمعوا بهِ وتمادوا في التعدي والسلب فهجر من بقي من اهالي القرى اوطانهم وتغلغلوا في الفلوات طلبًا للنجاة اما انا فلم استطع الهرب لعجزي وضعفي ولذلك تراني وحيدة شريدة باكية على مصاب قومي منتظرة حلول المات فحزنت عفيفة واستاءت لهذا الحال وعلمت بان الطريق امامها ذات اخطار فاسرعت في السير حتى ادركت القافلة ونادت رئيسها قائلة الى اين تسير ألم تسمع بما هو جارٍ في هذه البلاد ثم نقلت فحكت له رواية العجوز فارتعدت فرائصهُ وقال اذا صح الخبر يخشى على رجالنا ومالنا اذ ليس لنا مسلك الاَّ من هذا الطريق وشاع الخبر

بادرته بعبارات الشكر ولامت نفسها على عدم انتباههــا لكلامهِ واعتذرت اليهِ ثم اشارت الى القوم ان يهموا بالمسير اذ لا مربع لهم في ذلك المكان فنهضت رجال القافلة وحملوا الاحمال على ظهور البغال وساروا نحو دمشق الشام وسارت عفيفة وخادمهــا يوسف من خلفهم وهما على جواديهما وفكر عفيفة مشتغل بمــا سيكون في الشام وهل يتسهل لها نجاح امرها وجعلت كل شغلها تلك التصورات ولم تفارق تصوراتهــا اثناء الطريق الاَّ نادرًا وبينما كانت سائرة من خلف القافلة كانت تمر على قرى ونواحٍ خالية من السكان مع انها عامرة فتعجبت في نفسها وقالت هل لا يوجد سكان لهذه الضياع وكيف هي عامرة مع انها خالية من الانيس فلا شك انها كانت مأهولة وبينما كانت تفكر في ذلك التفتت فرأَت عجوزًا بظل كهف تبكي وتندب رجالها فدنت منها عفيفة وسأَلتها عن حالها وسبب انفرادها في تلك الجهات فاجابتها العجوز سأَلتكم بالله يا وجوه القوم لا تسأَلوني عما انا فيه من البلاء فان الحديث يزيد احزاني فالحت عليهــا عفيفة بالجواب فقالت اعلم يا سيدي انني من هذه البلاد ونحن من رعية الملك العادل ولهذا الملك اعداء القوا الفتن والمفاسد بين اهل البادية وعربان البرية وجمعوا الجموع الكثيرة وشنوا الغارة على اهل الضيع والقرى

المسير الى غابةٍ كثيفة الاشجار وكان التعب قد انهك قوى عفيفة فلم تعد تستطيع ان تخطو خطوة واحدة فاخذت لساعتها حجرًا وتوسدته وافترشت الحضيض على مرأى من القافلة فناداها يوسف بالحال وقال لها حذار سيدتي ان ترقدي في هذا المكان فانه عرضة للافاعي وفيهِ من الحشرات والوحوش مـا تهلع منه الصناديد الابطال وتسقط برؤيته قلوب اعاظم الرجال فلم تبالِ عفيفة بهذا الكلام اذ كان النعاس اخذ منها كل مأخذ وسد اذنيها عن كل مقال فانطرحت على الارض وما التقت برأسها على الحجر حتى اغمض جفنها وتسلط عليها الكرى فنامت براحة وسكون والقافلة واقفة وما منهم الا من ينظر بسيده ويخـاف عليه من طوارق الحدثان اما يوسف فلما رأى ان كلامه لم ياتِ بجدوى همَّ بالقرب منها الى دكةٍ فارتمى عليها وعيناه شاخصتان بالمحبوب واذا بأفعى رقطاء تنسل من وراء الشجرة وفمها واصل اليه فقام من ساعته واخذ بندقيته وصوبها لنحوها واطلق العيار الناري فلم يخطِ المرمى بل اصاب الافعى على رأسها فقتلها وحدث من ذلك صوت ذعرت لسماعهِ القافلة واحست منه عفيفة فنهضت نهضة المذعور وهي مرتاعة وجلست فاتاها يوسف بالحال ووطن افكارها واراح بالها واراها الحية المقتولة بقربها فلما رأتهـا عفيفة

مسرعين نحو القافلة وخديجة واقفة عن بعد ترسل نحوها طائر الطرف حتى نبطنا الوادي فلما توار يا عن عينيها هاج بها الغرام فانشدت هذه الابيات

لمن الهوادج يخترقن الوادي رفقاً فلم يحملن غير فؤادي
يا راحلين وفي الفؤاد مقامهم ولغيرهم والله لست انادي
حاشاكم ان تنكروا وله التي عرفت محبتها بصدق وداد
حفظاً على عهدٍ لعظمة شأنه بدمائنا قد خطّ لا بمداد

ثم عادت تعلل نفسها بالمحال اما عفيفة فعند وصولها للخيام استقبلها الرجال بالترحاب والاكرام وقال لها رئيس القافلة ارجو يا مولاي ان تكون مسروراً من منظر هذه المروج الواسعة وما حوته من الاشجار الظليلة والازهار الجميلة فشكرته عفيفة شكراً جزيلاً ثم دخلت خيمتها وخلعت ثيابها ونامت اذ كان النعاس قد اخذ منها كل مأخذ لما اعتراها من القلق في الليلة السابقة ولما قاسته من المشقة فاستغرقت في المنام الى الصباح ولم تنتبه الاَّ على صياح رجال القافلة الذين كانوا يهتمون باسباب الرحيل فنهضت من رقادها ولبست ثيابها فرأت يوسف واقفاً مستعداً وقد هيأ الخيل فقوضوا الخيام وحملوها على الدواب واسرعوا في السير نحو دمشق الشام وما زالوا يصلون السير بالسري حتى انتهى بهم

الزواج بغيرك ولو كانت من الحور فاقنع خديجة هذا الكلام واغترت بهذا الوعد وكلفتها لكتابة صك يتضمن العهد فاجابتها عفيفة لذلك تخلصاً من الوقوع في المهالك وحررت ما ياتي

قد قدر عليّ المولى اثناء رحلتي الى الشام ان ازور الامير عوض شيخ العربان فتعرفت هناك بابنته خديجة واتفقت معها على الاقتران بها واجلت الزفاف الى معادي من دمشق ان شاء الله وحررت لها هذا الصك سنداً عليّ ناصر المظلوم

ثم سلمتها اياه فاطمئنت خديجة عند تسليمها الكتاب واعتبرت ذاتها امرأة هذا الشاب فقضيا قسماً من الليل باللعب والمزاح ولما كاد يبدو الصباح نهضت خديجة وودعت الامير ناصر ذاهبة الى خيامها وبقيت السيدة عفيفة وحدها تفتكر في هذه الداهية الدهماء والبلية العظمى التي كانت على وشك الوقوع فيها فهجر النوم عينيها كل ذلك الليل ولما اشرقت الشمس على الروابي والبطاح نهضت من فراشها فغسلت وجهها ولبست اثوابها وخرجت الى محل الضيافة فاجتمع رجال العرب حولها وبعد ان شربوا القهوة استأذنت الامير بالذهاب بعد ان ودّعت وشكرت ودعت خادمها يوسف فهيا الخيل وركبا معاً وتبعهما الامير وبعض العرب الى قيد غلوةٍ داعين لهما بالسلامة والتوفيق ثم سارا

وانشدت هذين البيتين

استغفر الله الا من محبتكم فانها حسناتي حتى القاه
وان زعمتم بان الحب معصيةٌ فالحب احسن ما يعصى به الله

فعندها طرقت عفيفة برأسها الى الارض وتحيرت بماذا تجيب وخافت من الفضيحة فلم ترَ بدًّا من ان تجيبها على مرامها وتعاملها بالحلم والرفق لبينما تتخلص من غوائلها اقتداءً بقول الحكماء

فداويته بالحلم والمرء قادرٌ على سهمه ما دام في كفه السهمُ

فرفعت رأسها لها وقبلتها وتظاهرت بحبها قائلةً ايتها الاميرة ان عندي اضعاف ما عندكِ من الحب غير انني اخبرتك امس انني ذاهبٌ الى الشام لشغل مهم لا استطيع تأخيره خوفًا من ضياع الفرصة فاذا شئتِ عاهدتكِ على اقتراني بكِ عند رجوعي واعد ذلك من توفيقات المولى وسأصحب معي عند الرجوع من الملابس الشامية والمجوهرات ما يليق بتقديمه لاميرة نظيركِ فقالت لها خديجة اخاف ايها الامير ان تسلوني اذا بعدت عن الاوطان وتنساني وتتعلق بحب غيري لانه قيل في الامثال السائرة ابعد عن العين تسلاك الخواطر فقالت لها عفيفة كلا يا مولاتي فان المودة اذا استمرت قواها واستحكمت عراها لا تضعضعها ايادي الزمان ولا تقوى على حلها عوامل الفتن وان قلبي لا يطاوعني على

فانتبهت من رقادها مزعورة ورفعت نظرها فرأت خديجة عند رأسها وتعجبت من دخولها عليها في مثل هذا الوقت فقالت لها خديجة قد ازعجتك يا مولاتي بدخولي عليك بمثل هذا الوقت ولكن الضرورات تبيح المحظورات فهوذا انا اطلب العفو فعندها جلست السيدة عفيفة وسترت صدرها كي لا تطلع خديجة على امرها والبثت في فراشها ثم ترحبت بها وهي مستغربة حالها فقالت لها خديجة لا اريد ان التي على عاتقك ايها الامير اثقال الاطالة بزيارتي وانما لي حاجة عندك فالقيها عليك واريد منك جوابها فجلس الامير ناصر امامها وقالت له ايها الامير عند ما رأيتك نهار امس وانت مقبل مع خادمك تعلق قلبي بحبك ومال الى قربك فقصدتك تحت جناح الليل لتكن لي دون العالمين نصيراً واذا لم تجبني الى سؤلي ادّعي عليك بامرٍ تخشى عواقبه ولا ابالي بالفضيحة لانني عاشقة متيمة فاعذرني ايها الامير ومن ثم ارتمت على عفيفة وقبلتها وانشدت هذين البيتين

ليس بدعاً اذا رأيت مثالي   ساجداً باكياً امام عيونك
هذه حالتي اذا جنّ ليلي   وتصورت فيه سقم جفونك

فرفعتها عفيفة عن وجهها بلطفٍ وقالت لها استغفري الله ايتها الاميرة وابتعدي عن المسكرات فتنهدت عندها ابنة الامير

واهتمام خديجة ابنة الامير نخلعت عفيفة ثيابها وجثت على ركبتيها وصلت فرضها وبعد ان اتمت الصلاة تفكرت في امر خطيبها خليل وما تقاسيه من هموم فراقه واتعاب السفر فانشدت

الهي بحق الانبياء جميعهم بنوحٍ بابراهيم ثم بآدمِ
بموسى الذي نجيته واصطفيته كليماً وقد فضلته بالعوالم
بان تدفع الاثقال عني جميعها وترحمني يا رب واغفر جرائمي
وانك تدري ما يعانيه صاحبي من الحزن والبلوى وعظم العظائم

ولما انتهت من انشادها القت رأسها على الوسادة فنامت اما خديجة ابنة الامير عوض فلبثت ساهرة الى ان رأت صاحبنا دخل خيمة النوم فصبرت حتى هجعت العيون وساد السكون وصممت على الدخول على منزل عفيفة التي كانت تحسبها شاباً قائلة في نفسها لا بد من ان ادخل على هذا الامير واقنعه بزواجي واذا أبا ادعي عليه بانه اغراني وافضح امره بين العرب اذ بذلك استر فضيحتي مع ابن عمي وبعد توطينها النفس على ذلك لبست افخر ما عندها من الثياب وتعطرت وخرجت من خبائها متسللة تحت اجنحة الليل الحالك حتى دنت من باب الخيمة النائمة فيها عفيفة فوجدته مشروجاً فقلعت وتداً من اوتاد الخيمة حتى تمكنت من الدخول ثم دنت من فراش عفيفة ونبهتها بهدوٍ وسكينة

طلبك وابغي ان تسبقينا مع البنات ونحن نتبع آثاركما فاستحسنت خديجة هذا وقامت مع البنات وذهبنَ الى الحي و بعد قليل تبعهما الفارسان عفيفة وخادمها يوسف حتى اذا بلغــا الحي قصدا ارفع المضارب واوسطها وهو مضرب الامير عوض فتراكض العبيد والامناء لاستقبالهما والترحب بهما وانزلاهما على السعة مقدمين لهما القهوة واذا بالامير صاحب المنزل دخل عليهما ومعه جماعة من قومه فتبادلوا السلام والتحية واظهروا لهما من المجاملة وحسن الوفاء ما كان من شأنهم وعوائدهم واعدَّ لهم الامير وليمة فاخرة فتناولا طعامه و باتا يستمعان كلامه وكانت السيدة عفيفة تجيب كل سائل بابلغ جواب فاحبها الجميع ومالوا الى قربهــا وكانت خديجة ابنة الامير وراء الحجاب تسمع الخطاب فازدادت محبتها للشاب وعند المساء قدم طعام العشاء فاكلوا ثم حاولت عفيفة ان تستأذن وتنصرف فالحَّ عليها الامير بالبقاء في منزله والمبيت عنده فالتفت حينئذٍ يوسف الى عفيفة وقال لا مانع يا سيدي من اجابة سؤاله والبقاء هنا حتى الصباح فامتثلت عفيفة شاكرةً للامير فضله وقطعت قسماً من الليل بالحديث حتى اذا دبَّ النعاس في اجفانها انصرف كل الى مبيتهِ وقاد الامير عوض عفيفة الى خيمة اعدت لها كانت مفروشة باحسن فرش ومرتبة احسن ترتيب بعناية

بالقرب من خديجة وهي في اثواب الرجال كما لا يخفى فسألتهـا خديجة من اي بلاد هما واين يقصدان فقال يوسف اعلمي ايتهـا الاميرة ان هذا الامير واشار الى السيدة عفيفة اسمه الامير ناصر المظلوم من اهالي الجزيرة وانا عبده وخادمه بارحنا بلادنا قاصدين زيارة دمشق وسائر الاراضي المقدسة ومعنا قافلة نزلت في اطراف هذا المرج لاجل الراحة وسنمكث هاهنا يومين فقصد الامير النزهة والتجول وهو مـا أدى بنا الى الاجتماع بكِ ثم اخذت تسأل الامير ناصر عن احوال بلاده فاستأنست عفيفة بحديثها ومالت الى قربها واخذت تجيبها عن كل سؤال بكل لطف و بشاشة وكانت خديجة تتأمل في سواد عينيها و بياض خديها وحمرة شفتيها وتعجب من هذا الجمال الباهر ونسيت حب ابن عمها وفكرت في امرٍ يسهل لهـا الخلوة مع عفيفة اذ كانت تتوهمها رجلاً كما مرّ فقالت لها انك ايها الامير في ضيافتي هذه الليلة فهلمَّ بنا الى هذا الحي فاجابتها عفيفة الى ما ارادت وقالت لخادمها يوسف قرّب الجواد فاشار اليها سرًا بانه من اللايق ان البنات يسبقنَ امامها ولا تذهب برفقتهنَّ دفعاً للشبهات اذ اننا رجال وهنَّ بنات فاستحسنت السيدة عفيفة كلامه واستصوبته والتفتت الى الاميرة خديجة وقالت لهـا ايتها الاميرة لقد اجبنا

ذاك البر فصادف وجود عفيفة مع خادمها يوسف وكانت خديجة منشغلة الفكر والخاطر ترسل طائر الطرف في تلك الفسحة تارةً الى اليمين وطوراً الى الشمال وكلما لاح لها شبح من بعيد تتوهم انه ابن عمها الى ان نظرت غباراً قد انكشف عن جوادين يعلوهما فارسان غريبا الشكل فانعطف قلبها اليهما وترجح عندها ان احدهما ابن عمها فدعت احدى البنات وقالت لها اريد منك ان تسرعي الى هذين الرجلين وتدعيهما اليَّ وقولي لهما ان ابنة امير العرب نازلة في هذه الناحية وهي تدعوكما الى زيارتها فاسرعت الفتاة نحوهما واستوقفتهما قائلة ان سيدتي الاميرة خديجة ابنة امير هذا الحي تدعوكما اليها وقد اوصتني ان ابلغكما سلامها وهي ترجو منكما المجي اليها فالتفتت عفيفة الى خادمها يوسف وقالت له سراً ماذا تقول اما من خطرٍ علينا باجابة طلب هذه البنت والذهاب اليها فقال لها يوسف كلا يا سيدتي فان من عوائد العرب الكرم وقرى الضيف واكرام وفادة ابناء السبيل فضلاً عن انهم بعيدون عن الغدر فاطمأنت عفيفة وسارت نحو العين المحدقة بها بنات العرب ولما دنت من المنزل نظرت عفيفة الى خديجة ابنة الامير فتبين لها انها ذات ظرفٍ ووداعة وجمال ولما دنت منها نهضت خديجة من مكانها وترحبت بهما وبعد تبادل التحية جلست عفيفة

وذهبت ومعها خادمها الى جهة الشرق من المرج المذكور ولما بعدت عن القافلة جال نظرها في اطراف ذلك البر يميناً وشمالاً فرأت عن بعدٍ رابية ذات اشجار فقالت لخادمها هيا بنا يا يوسف نحو هذه الرابية العالية فانها مشرفة على ما حولها من السهول فاجابها طائعاً واسرعا ولما اقتربا من ذلك المحل لاحت منهما التفاتة الى عين ماء تسيل من الرابية والى جانبها شجرة من الدلب تظلل قسماً من الارض وتحت هذه الشجرة ست بنات عربيات بينهنَّ فتاة كانها القمر المنير وهي تأمر عليهنَّ فيجيبونها الى ما تشير وكان اسم هذه الاميرة خديجة ابنة الامير عوض الطويس شيخ عرب الفجوم وكان فريق ابيها نازلاً شرقي الرابية قرب غدير من الماء وكانت خديجة عاشقة ابن عم لها اسمه هزاع وشاع امرهـا عند العرب وحيث كان من عوائد العرب انهم لا يزوجون احدى بناتهنَّ لمن عرف بعشقها فامتنع والدها عن زواجها الى ابن عمها الامر الذي زاد في طنبور غرامها نغمة فقضيا امراً كان مفعولاً وتركها حينئذٍ هزاع وشأنها قاصداً بذلك فضيحة والدها وكانت خديجة في غالب الاحيان تأخذ من يرافقها من بنات العرب وتبعد عن المضارب والخيام على امل ان ترى ابن عمها في بعض الجهات الى ان خرجت ذلك النهار ومعها من تبعها من البنات الابكار في

بعد السماط ودعا رجال القافلة لمناولة الطعام وبعد ان تناولوا
الطعام واستراحوا قليلاً نهضوا وحملوا الاحمال مستأنفين السير
حتى المساء فنزلت القافلة على جانب غدير ونزل الامير ناصر مع
خادمه يوسف بالجهة المقابلة واسرع يوسف فنصب خيمة وكراسي
وهيأ كلما يلزم للراحة ثم تناولوا الطعام وباتوا تلك الليلة وفي صباح
اليوم الثاني نهضوا قاصدين دمشق والامير ناصر وخادمه يوسف
ممتطيان جواديهما واخذوا يقطعون الفيافي والاقفار حتى اشرفوا
على مرج كثرت اشجاره واينعت ثماره فقال رئيس القافلة للأمير
ناصر ان هذا المرج يا مولاي كثير العشب والنبات ومن
الصواب ان نمكث فيه يومين لراحة البغال فاجابه الامير الى ما
طلب حيث كان قد اعياه التعب شأن ربات الحجال ذوات
الغنج والدلال وبعد ذهاب سليم دعت عفيفة خادمها يوسف
وامرته ان يهيئ الخيل حيث تريد ان تتنزه في اطراف المرج
وتتجول في اراضيه المخصبة فامتثل يوسف امرها فلبست ثيابها
وتقلدت بسلاحها ودعت رئيس القافلة وقالت انني ذاهب للتجول
في هذا المرج فدع رجال القافلة يحرسوا الخيمة والمتاع الى ان نعود
وبعد ذلك ركبت جوادها المسرج بالسرج المزركش وكانت
لابسة ملابس الامرآء فيخال لناظرها انها من ابناء الملوك الكبار

الفصل السادس

في سفر عفيفة

ثم بعد ان صرفت عفيفة خدامها دعت احدهم يوسف الذي امرته بالسفر معها واوصته ان يهيئ جوادين من اكرم الخيل وان يستأجر بعض المكارين لنقل معدات السفر فذهب واتم كل ذلك ثم عاد فاخبر السيدة بانه وجد قافلة ذاهبة الى دمشق فاستأجر بعض رجالها معها فسرت عفيفة وباتت تلك الليلة مرتاحة البال وفي صباح اليوم الثاني نهضت من سريرها فرأت خادمها يوسف ومعه المكارون قد هيأوا الاحمال ورفعوها على ظهور البغال فلبست لباس الرجال وتقلدت بالسلاح وعلت على الجواد المعد لركوبها بعد ان ودعت وكيلها وخدامها وكررت عليهم وصاياها ثم سافرت على مشيئة الرحمن وعند خروجها من المدينة دعت خادمها يوسف وقالت له اذا سُئلت عني فسمني ناصر المظلوم اذ لا اريد ان أُعرَف بانني فتاة فاجابها بالطاعة وسارا مجدين السير الى ان اختلطا مع القافلة فتقدم رئيس القافلة وكان اسمه سليم وحيّ الامير ناصر المظلوم فردت عليه التحية واخذت بمحادثته موردة عليه القصص والنوادر وعند الظهر عرجوا على بعض المياه قاصدين الاستراحة فأَمر الامير ناصر خادمه يوسف

ولهيب النار في احشائنا　　مضرم ذاك كجمر بالشرر
متع الله محبًا عاشقًا　　من حبيبٍ بوصالٍ ونظر
ان للعشاق عذرًا واضحًا　　ليس يدري العذر الأ ذو النظر

فلما فرغت من شعرها اتكأت على وسادة كانت تحت يدها فادركها النوم ساعةً ولما استيقظت بدلت لباسها ودعت خدامها قائلةً لهم انني مزمعة على زيارة الاماكن المقدسة واريد ان اصحب معي احدكم يوسف لانها كانت تثق بامانته وامرته ان يجهز ما يلزم للسفر من مأكل ومشرب وملبس ثم دعت خادمًا آخر كان يدعى كاملاً كان مربيًا لها فاقامته وكيلاً على املاكها ودعت قاضي الجزيرة فصدق على صحة التوكيل وسطر دفترًا بكلما سلمته الى وكيلها كامل فامضاه وصدق عليه الحاكم بعد ان اقر كامل بالتسليم وانصرف القاضي من عندها ومن ثم صرفت الخدام وجمعت نقودها ومجوهراتها ومقتنياتها الثمينة مع دفاترها واوراقها ووضعت الكل ضمن صندوق ودفنته في محل مجهول وبعد ذلك استحضرت خدامها والقت عليهم المواعظ والنصائح اللازمة واوصتهم بمداومة اشغالهم بالعناية والدقة وبان يكونوا جميعًا تحت رئاسة كامل وطاعته وامرته ان يعاملهم بالرفق وان يلاحظ ادارة الاعمال بكل ضبط وحكمه

يا ليل سلم على الاحباب مخبرهم
واشهد بعلمك اني فيك لم انم

هذا ما كان من امر خليل الذي بات يقاسي عذاب السجن وبلائه واما ما كان من امر عفيفة فانها بعد ان ودعت السجان اسرعت بالجري الى دارها يصحبها خادمها الذي كان ينتظرها خارجاً فلما دخلت الدار خلعت ثوبها وحاولت ان تنام فتعذر عليها ذلك نظراً لافتكارها بما سوف تلاقيه من الاخطار ومن فراق حبيبها وقد احيت ليلها في هذه الافكار ولما بزغ الصبح فتحت شباك حجرتها المطل على حديقة الدار ناظرة الى قفص معلق في غصن شجرة وفيه بلبل يغرد بصوته مسبحاً خالق الليل والنهار فلما سمعت تغريده تذكرت مصابها فسكبت الدمع المدرار وانشدت هذه الاشعار

ان للبلبل صوتاً في السحر ... شغل العاشق عن حسن الوتر
في الهوى انس الوجود المشتكى ... من غرامٍ قد محى منه الاثر
كم سمعنا صوت الحانٍ محت ... طرباً صلد حديد وحجر
ونسيم الصبح قد يروي لنا ... عن رياضٍ يانعاتٍ بالزهر
فطربنا بسماعٍ وشذا ... من نسيمٍ وطيورٍ في السحر
وتذكرنا حبيباً غائباً ... فجرى الدمع سيولاً كالمطر

واعطته قبضة من الدنانير واوصته بخليل الذي لما خلا السجن به اشتد غرامه وتذكر الفتاة فقال

جنّ الظلام وهاج الوجد بالسقم
والشوق حرّك ما عندي من الألمِ
ولوعة البين في الاحشاء قد سكنت
والفكر صيرني في حالة العدم
والوجد اقلقني والشوق احرقني
والدمع باح بسري اسي مكتتم
وليس لي حالة في العشق اعرفها
من رق عودي ومن ضعفي ومن المي
جحيم قلبي في النيران قد سعرت
ومن لظى حرها الاكباد في نقم
ما كنت املك نفسي ان اودعهم
يوم الفراق فيا قهري ويا ندمي
يا من يبلغهم ما حلّ بي وكفى
اني صبرت على ما خطّ في القلم
والله لا حلت عنهم في الهوى ابداً
يمين شرع الهوى مبرورة القسم

حيث العدالة ازهرت والحاكم معروف بالعدل والتقوى ومشهور بالعلم والفضل والشرف فاذا تيسر لكِ الوصول اليه والتمثل بين يديه احسني الوقوف وتظلّمي تظلم الملهوف واجتنبي كثرة الكلام وليكن وقوفكِ بغاية الاحتشام واول ما تتكلمين به الدعآء له حيث ان الله اوجب للحكومة على عباده حق الطاعة والنصيحة واوجب لعبيده على الملوك بسط العدل والرأفة واحيا السنن الصالحة فاذا ادى كل الى كل حقه كان ذلك سبباً لاتمام المعونة واتصال الزيادة والتآم الكلمة ودوام الالفة ومن المقرر ان كل نعمة يجددها الله بالملك تتصل برعيته كافة لان الله جعل بنعمة الملك نعمة عبيده وامره بحفظ دينهم وعرضهم وحقن دمهم وترويج مصالحهم واني اعتقد بان الملك اطال الله بقاه منطوٍ قلبه على الشفقة والعدل والحكم وكشف الظلم فالله المسئول ان يؤيده بالنصر المبين

والان ايتها السيدة اكتفي بما اوردته لكِ وباشري اتمام مشروعكِ متزودةً شكري ودعائي وبينما هو يتكلم دخل السجان قائلاً لقد طال الوقت واخشى ان يفاجئنا احد المأمورين فيكون ذلك داعياً لعزلي وعقوبتي فنهضت عفيفة باكية وصافحت خليل مصافحة الوداع واعطته من النقود ما معها ثم خرجت مع السجان

تنال بالرفق وبالتأني ما لم تنل بالجد والتعني

واتكلي باعمالكِ على الله واعتقدي باحكامه فمها امر به كان ولا تستعجبي من امر اذ قيل

ما تطلع الشمس وتغيب الا للمرء شان عجيب

ولا تستحقري ذاتك ويوهمك شخصك اذ قيل

واول ما يكون الليث شبلاً ومبدأ طلعة القمر الهلال

ودعي عنكِ مداهنة الناس واذا احتجتِ الى افشاء سركِ لاحد فامتحنيه اولاً اذ قيل لدى الامتحان يكرم المرء او يهان ولله در القائل

وما كل ازهار الرياض بريحةٍ ولا كل اطيار الفلا تترنمُ

وقالت الحكماء ان الجليس انما هو الذي لا ينافق ولا يمل ولا يأتيك اذا جفوته ولا يفشِ سركِ اذا ساررته ولله در القائل في هذا المعنى

جليسٌ انيسٌ يأمن الناس شره

ويذكر انواع المكارم والنهى

ويامر بالاحسان والبر والتقى

وينهي عن الطغيان والشر والاذى

واعلمي ايتها السيدة ان مسيركِ سيكون الى مدينة دمشق

يعينكِ في الاسفار وذلك بعد ان تستحلفيهِ على الامانة وعدم الخيانة واصحبي معكِ من المال ما يلزم ومن السلاح ما يقيكِ وخادمكِ من هجمات اللصوص وقطاعي الطريق ووحوش البرية ورافقي بعض القوافل السائرة متكلةً على الله في عملك وانني استودعكِ لواحد احد يصونك وينجح طريقك ويسهل بعادكِ وعند ما يتيسر الوصول الى عاصمة الملك اعتصمي بالرزانة والحيلة واللطف وتقربي من اهل المراتب ولا تجلسي الا مجالس العلمآء والعظمآء ولا تعاشري احداً من ذوي الشبهات والسفهآء متزانةً الى اهل الفضل والمروءة مصغيةً لكلامهم ونصائحهم فقد قالت الحكمآء على المرء ان يتعلم حسن الاستماع كما يتعلم حسن الحديث واحذري من ان تسرعي في القول كيما يجب الرجوع عنه بالفعل واقتدي بقول الشاعر

فكم من جاهلٍ امسى اديباً بصحبة عاقلٍ وغدا إماما
كمآء البحر مرٌّ ثم تحلو مزاقته اذا صحب الغماما

ولا تنازعي احداً حديثه واذا دخلتِ بيتاً اجلسي حيث يجلسكِ اهلهِ وبالاجمال استعملي بالفاظكِ وحركاتكِ الآداب واستعيني على قضاء حوائجكِ بكتمان السر ولا تملي اذا طال عليكِ الامر ولا تيأسي من فرج الله اذ قالت الشعراء

وما طرقت باب هذا السجن في مثل هذا الوقت الاَّ لأراك واعتصم برأيك واستمد نصائحك غير مبالية بكلما يحدث ولا انكر ان افكاري خالية من العوامل المادية والانفعالات الادبية المستولية على افكارك بالنظر لسجنك وظلمك ويمكنني ان اميز حقائق الامور الان اكثر منك ومع هذا فلم اشاء ان اكتفي برأيي بل عزمت على ان نتشاطر الرأي ونتقاسم والاهتمام في امر يهمنا معاً وهو خلاصك من الضيق وتبرئة ساحتك من وصمة الذل ولما كان الوقت قصيراً واخشى من كشف حالنا ارجو ان تجود عليَّ بالنصائح وما يقتضي اتخاذه قبل سفري من التحوطات التي تصون مالي وتكتم سري وما يقتضي لسفري من اللوازم وبأي زي ينبغي ان اسافر فقال خليل اذا كنتِ مصرة على الاخذ بناصري ومغادرة هذا البلد ذهاباً الى العاصمة فعليكِ اولاً ان تضعي جميع اموالك وحلاكِ ودفاتركِ واوراقكِ في مكانٍ خفي لا يعلم بهِ الاَّ الله وان تقيمي وكيلاً على املاككِ يحفظها ويدبرها بامنٍ وتتظاهري بالرغبة في زيارة الاراضي المقدسة كي لا يشعر احد بما تنوين وبعد تتميم ذلك كله هيئي من اثواب الرجال ما يلزم لهذه الرحلة مع جوادين سريعين الجري احدهما لكِ والآخر لخادم تصحبينه معكِ يكون من الامناء الشجعان

يتكفل بخلاصك من هذه التهمة وتبرئتك تجاه الخاص والعام فقال لها خليل نعم ما تفكرين به ايتها السيدة وانا بعد شكري لكِ على ما اوليتيني اياه من النعم السابقة ارجوكِ ان تتمي فضلك وتدبري الامر بنفسك لتسهيل ايجاد طرق لخلاصي الذي به تقوم سعادتي وسعادتك فقالت له انني ارجح وجوب سفري الى العاصمة واتخاذ وسائل توصلني الى البلاط الملكي حيثما اعرض ظلامتك الى اعتاب المليك العادل لعلي احصل على اسباب تبرئتك هناك فقال لها نعم الراي ايتها السيدة الفاضلة فقد اغرقتني انعامك واحسانك واستظهرت على جور الزمان بفضلك واستترت من دهري بظلك غير ان هذا يفضي بكِ الى القاء نفسكِ في المخاطر والمتاعب وتحمل مشقة الاسفار التي تتعسر على ربات الحجال فقالت له اعلم يا مولاي انه وان كان لم يتم الاقتران بيننا حتى الان لكنني اعتبر ذاتي رفيقتك الشرعية وأرى ان من واجباتي السعي وراء مساعدتك وخلاصك محافظةً على شرفك وحقوقك وتأييداً لما تلوته على مسامعي من آداب المرأة وواجباتها نحو زوجها في المرة الاولى من اجتماعنا في بيتي مهما كلفني ذلك من التعب وركوب المخاطر ولقد وطنت النفس منذ الان على السفر غير مبالية ببذل المال وتحمل الاثقال في سبيلك

اشكو ظلمي وما من سميع غير الله وقد ازددت حزناً اذ ظننت انك ظننتِ بي سوءًا فتكرهينني بعد الحب وتنكلين بالعهود فتكون المصيبة الاخيرة اشد من الأُولى فتعاظمت هذه الافكار عليَّ وتراكمت حتى حرمتني الرقاد وبينما انا في هذا الحال جاءني الخادم بكتابكِ المشفوع باحسانكِ فكان سبباً لتعزيتي وزوال اوهامي وما كان يخالج فؤادي من دواعي القلق والاضطراب وغدوت واسع الامل اذ وعدتيني بالسعي وراء تبرئتي فلا عدمتكِ يا حبيبة من نصوح شفيق وفي يحافظ على العهد ويخوض المعامع ويقتحم الاخطار قياماً بدواعي الانسانية والحب واني الان اسير الجسم عقيم السعي لا يمكنني اتيان ادنى عمل فاتكل على الله ثم عليكِ واسلم اموري اليكِ واني متحجب من مقابلتي اياكِ في هذا المحل المظلم بهذه الملابس الرثة مقيداً ذليلاً ممتهناً ولكن احكام الله لا ترد فعندها التفتت اليه عفيفة قائلةً انني اتوجع يا حبيبي لمصابك واشاركك في اوصابك اما ما كان من سوء تصرف رجال الشرطة وقصورهم في اظهار الحقيقة فسوف اعرضه للمقام الاعلى فينالوا جزاء ما جنت ايديهم وانني اعجب من تصورك بانني انكل عن العهد واصدق انك قاتلٌ حاشا لي يا سيدي ان اكون كما ذكرت بل انا متأكدة منذ عرفت الخبر براءتك فعلينا الان ان ندبر رأياً

مبادي الحقائق فرجال الشرطة لم يتموا ذلك ولم يتحروا سبب الموت ولم يفهم من تقريراتهم عن هذه التهمة وموت هذا الرجل هل هو مات ضرباً بالعصا او السكين او السيف او رمياً بالرصاص كاطلاق بندقية او نحوها او مات منتحراً لانه لو فرض المحال وحسبت قاتلاً وتوجه الظن عليّ ووجب القصاص حفظاً لبقاء نظام الجمعية البشرية فمن الواجب ان يتبين فعل القتل من اي نوع هو لان العلماء قسموا فعل القتل الى خمسة اقسام العمد وشبه العمد والخطا والقريب من الخطا والقتل بسبب ورجال الحكومة لم يبينوا شيئاً من ذلك واهملوا كلما يترتب عليهم شرعا وقانوناً متحاملين عليّ ومثبتين جنايتي ظلماً ولم يبحثوا عما سلف من حياة الميت ولا عن رفقائه ولا عما اذا كان بينه وبين احد عداوة تدفعه لارتكاب هذا الجرم الى غير ذلك من الوسائل المقتضي البحث بها بل اقتصروا على كونهم قادوني الى هذا السجن كجانٍ وعاملوني معاملة الاسير الكسير الضعيف الفاقد النصير وتظاهروا ضدي بالخصومة والعدوان حتى صدق بي قول من قال

اذ كان خصمي حاكمي كيف اصنع
لمن اشتكي حالي لمن اتوجع

وقد القيت في هذا السرداب المظلم مكبلاً بالحديد كما ترين

عفيفة وحيته تحية المستهام ودمعها في الخد شاهد على ما قام في قلبها من دواعي الشوق فاجابها هو بمثل لهجتها ولم يستطع ان يرفع عينيه للنظر اليها لان خجل الحبس الزمه ان يطرق الى الارض و بعد شكوى الم الفراق ومبادلة احاديث الحب سألته عفيفة عن حاله تفصيلاً فأخذ يقص عليها الخبر كما مر الى ان قال ان رجال الشرطة ماموري الحكومة لم يتحروا الجرم بوقته كما يجب بل اعتبروا مروري من هناك ووجود آثار الدم على ثوبي كفوءًا للثبوت ولم يلتفتوا لما اوردته لديهم من ان آثار الدم كان ناشئًا عن وقوعي على جثة القتيل فتغافلوا عن احقاق الحق واكتفوا باتهامي وحدي فقالت له عفيفة لو فرض ان هذا مجهول ماذا يجب على رجال الحكومة ان يصنعوا لاظهار الحقيقة فاجابها من المعلوم ايتها السيدة انه اذا وقع قتل احد الناس وكانت الاسباب مجهولة داعية الاشتباه فحاكم البلدة او من يقوم مقامه في محافظة الحقوق العامة يذهب بواحد او اكثر من الاطباء والجراحين الشرعيين الى حيث الجثة وحينئذٍ يعطي الطبيب تقريرًا كاشفًا عن حالتها حاويًا بيان اسباب الموت الطبية بعد ان يحلف كل من الاطباء والجراحين اليمين بانهم يبدون تقاريرهم من دون ميل ولا غرض و يوضحون معلوماتهم بعدل اذ في هذا تظهر

بين انيابهِ ومخالبهِ وصليت بنار حوادثهِ ونوائبهِ فعانيت شدة متاعبهِ وامور مستصعبه واهوالاً لو مرت بالحديد لذاب وبالوليد لشاب فانه بعد اقدامي لنيل المعالي وبلوغي جل آمالي وقعت في هذه المحنة فقادوني ذليلاً مهاناً واذاقوني من مر العذاب الواناً ووضعوني في هذا السجن كجاني وابعدوا عني اصدقائي وخلاني والذي يزيد كربي ويضاعف احزاني عدم معرفتي اخبار حبيبتي عفيفة وهل وصلها كتابي وماذا فعلت ياترى توصلاً لنجاتي وهل يأتي الفرج عن يدها وبينما هو يتكلم بهذا اذا بباب السجن انفتح ودخل السجان ومعه رجل معتدل القامة فسلما على خليل وسألاه عن حالهِ فرد التحية باحسن منها وهو حزين كئيب مكبل بالحديد فساء الفتاة هذا المنظر الاليم ففاضت عيناها بالدموع واخذت تعزي خليل على مصيبتهِ والتفتت الى السجان قائلةً يرجح عندي بان هذا المحبوس بريءٌ مما نسب اليه ولا شك بان الله امرض ولدي حتى تهيأت لي زيارة هذا السجن لانظر حال هذا المظلوم فاسعى بكشف ظلامته فارجو بان تسمح لي بالاختلاء معهُ ساعةً لاعزيه على مصابهِ واستفسر منه عن حقيقة حاله فاجابها السجان الى ذلك وهي لا تصدق ان ترى الحبيب على انفراد فلما خلا بهما المكان كشفت عن رأسها وقالت له ايها الصديق خليل ها امامك

جلالتك حالي وانك على كل شيء قدير فاسألك اللهمَّ ان تنجيني من هذا العذاب ثم انشد وقال

اشار القلب نحوك والضمير ... وسرّ السرّ انت بهِ خبيرُ
واني ان نطقت بكم انادي ... وفي وقت السكوت لكم اشير
ايا من لا يضاف اليهِ ثانٍ ... اتاك الواله الصب الفقير
ولي امل تحققه ظنوني ... ولي قلب كما تدري يطير
وبذل النفس اصعب ما يلاقي ... فان قدرته فهو اليسير
وان تحزن وتمنحني خلاصي ... فانت عليه يا املي قدير

ثم قال آه ما هذا المصاب وعاتب دهره قائلاً

الدهر يفترس الرجال فلا تكن
ممن تطيشه المناصب والرتب
واحذر من الذلات واجتنب الاسى
واعلم بان الدهر شيمته العطب
كم نعمة زالت وحلت نقمةٌ
ولكل شيء في تقلبهِ سبب

ووضع يده على جبهته وتنهد قائلاً هذا ما قيل لي منذ ايام بدر سعدي منير ويد السعادة اليَّ تشير فظننت انني بلغت المنى وادركت الامال ولم ادرِ بان الدهر ابو الاهوال حتى وقعت

خادمها في المرة الاولى واقف خفيته فرد عليها تحيتها وسألها عن سبب دخولها وماذا تريد فقالت له انني رجل من الاغنياء ولي ولدٌ وحيد اصابه مرض عضال اعياني امره وبذلت اموالاً طائلة للاطباء على غير جدوى وفي هذا الليل تفاقم الامر وساءت حاله فرأيت ان ازور السجن وابذل بعض الدراهم احساناً لبعض السجناء لعل الله يفرج كربة ولدي فيشفيه من مرضه لانه قيل . من اغاث البائس الملهوف اغاثه الله من كل ضرر . فعلى الانسان ان يحسن الى الفقير فيدركه الفرج فتبسم عند ذلك السجان وترحب بها وقال لها يا مولاي ان عمل الخير والاحسان خير ما يفعله الانسان ويوجد في هذا السجن رجل اسمه خليل متهم بجناية قتل واظن انه مظلوم وهو وحيد فريد لا اهل له ولا اصدقاء يقطع اوقاته بالصلاة ويقضي الليل والنهار بنظم الاشعار ولعله من علماء العصر الكبار ومن يعلم ان ما نسب اليه حقيقيٌ او تحامل عليه من الغير فلما تحققت عفيفة ان خليل داخل السجن القائم هذا الاعجمي بخفارته مدت يدها لجيبها واخرجت بعض الدنانير ودفعتها له وقالت له اجمعني بالله بهذا الفقير ففتح السجان الباب وادخلها من السرداب واذا بخليل راكع على ركبتيه يصلي قائلاً اللهمَّ الهي وسيدي انك مطلع على كل ما نزل بي ولا يخفى على

دخلت احدى الغرف وفتحت خزانة والدها فاخرجت بدلة ولبستها ووضعت على راسها منديلاً من الشال العجمي التفت به بزي رجل ووضعت بجيبها غدارة وخرجت من الباب الى الدقاق المؤدي الى السجن تحت ظلام الليل ووصلت الى المكان وكانت الساعة السادسة ليلاً ولما بلغته دارت حوله وكان الليل هادياً لا يسمع فيه صوت ودنت من جهة الباب واذا برجل بربري واقف بحراسة السجن فانتهرها فلاطفته فلم يعرها اذناً صاغية وارادت ان تنفحه بعض الدراهم لكي تستولي عليه فزجرها حتى اغاظها فتمثلت بقول الشاعر

رأيت آدم في نومي فقلت له ابا البرية ان الناس قد حكموا
ان البرابر نسل منك قال اذا حواء طالقة ان كان ما زعموا

ثم تركته ودارت حول السجن ثانية فوجدت باباً آخر وعليه ثلاثة غفراء فدنت منهم حتى لم يبقَ بينها وبين الباب سوى خمس خطوات واذ كان الليل حالكاً لم يشعروا بها فلبثت بمكانها واصغت باذنيها فلم تسمع حركة فتاكد لديها انهم نيام فدنت حتى قاربت الباب وكان مفتوحاً ثم اعادت النظر الى الرجال فعلمت من ثيابهم انهم من غير رجال الشرطة وانهم من صعاليك القوم فدخلت باب السجن واذا بالحارس العجمي الذي كان قابل

الامصار و بدائع الاقطار ومحاسن الآثار و يزيد المرء فهماً بقدرة الله حكمة وفي السفر فائدة فانه يشدد الابدان ويتنشط الكسلان و يسلي الاحزان ولله در القائل بهذا المعنى

تغرب عن الاوطان في طلب العلى
وسافر ففي الاسفار خمس فوائدِ
تفرج همٍ واكتساب معيشةٍ
وعلمٌ وآدابٌ وصحبة ماجد
فان قيل في الاسفار همٌ ومحنةٌ وقطع الفيافي وارتكاب الشدائد
فموت الفتى خير له من مقامه
بدار هوانٍ بين واشٍ وحاسد

و بعد ان انشدت ما انشدت استمرت في هذا الفكر و بقيت في مذاكرتها العقلية مدة ثلاثة ايام تضرب اخماساً لاسداس باتخاذ التدابير التي تراها موافقة لا يعوقها لمباشرة عزمها كالوهم يعرض لها بهذا السبيل ومن ثم قالت اذا تمت هذا الامر يقتضي لي سفر طويل ولربما حصل شيء على خليل لم يكن في البال فلي الان ان اتخفى بزي رجل واحتال للوصول اليه لعله يرتأى رأياً اكثر صواباً اذ هو اوسع فكراً مني واعزيه بالوقت نفسه على مصابه ففرحت من اجل ذلك واخذت تهيء ما يلزم الى ان

ركبتيها ورفعت رأسها الى السماء وانشدت هذه الابيات

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا

فقمت اشكو الى مولاي ما اجدُ

فقلت يا عدتي في كل نائبةٍ

ومن عليه لدفع الضر اعتمد

لقد مددت يدي والضرُّ مشتملٌ

اليك يا خير من مدت اليهِ يد

وبعد ان قالت هذا جلست مستوية فجال بفكرها انها تتزيّا في الغد بلباس الرجال وتكتم سرّها عن كل انسان وتزور دار الملك وتتقرب من خدمه ورجاله وتحتال على التوصل الى بلاطهِ والتمثل امامه لعلها تتوصل هناك لاظهار تبرئة خطيبها وبعد ان وطدت النفس على ذلك غير مبالية بما تعترضه من المصاعب وقد زادها الحب والمنى جسارة فاستهانت كل خطرٍ في سبيل خلاص محبوبها ولما صممت على السفر الى العاصمة استولى عليها الوهم والخوف مقدار ساعة ثم ثبتت عزيمتها وقالت ما يضرني اذا سافرت واتبعت اقوال الحكماء اذ قالوا السفر احد اسباب المعاش والنجاح لان الله تعالى لم يجمع منافع الدنيا في ارض بل فرقها واحوج بعضها الى بعض ومن فضله ان صاحبها يرى عجائب

التقادير اثناء المسير الى الشارع المؤدي لدارك اذ عثرت قدمي بجثة قتيل فسقطت عليهِ وتلطخ ثوبي بدمهِ وقبل ان استوفي المسير انقض عليَّ رجال الشرطة والقوا عليَّ القبض وأخذوا يسألونني عن حقيقة امري ثم اودعوني السجن ولا زال الفحص جارياً مجراه وانا اصبحت كالطير المقصوص جناحه لا اقدر على شيء ولكن الله سبحانه قد سخركِ ايتها الحبيبة لمساعدتي وتعزيتي فاياه احمد واياك اشكر يا من هي شريكتي في شدتي وفرجي في ضيقي فافعلي لنجاتي ما يلهمكِ به الله الذي استودعك اياه والسلام خليل

ثم طوى الكتاب وختمه وسلمه الى السجان فاخذه هذا وسلمه الى الخادم الذي ذهب به الى سيدته ولما دخل الدار سلمها الكتاب وهي فارغة الصبر ولما قرأته تمزق فؤادها حزناً على حبيبها ثم رددت تلاوته متأملة في كلامه واخذت تفكر في واسطة تسهل برأته واذ ضاق بها الحال نهضت من غرفتها وتمشت في صحن الدار فسمعت صوت غراب ينوح نوح المصاب ويهيج بما يجده من الم العذاب وقد لبس من الحداد اسبغ جلباب فخاطبته قائلة ما بالك ايها الطير في البكور ساعياً وعلى الربوع ناعياً والى البين داعياً ان رأيت شملاً مشتملاً انذرت بشتاتهِ وان شاهدت قصراً عالياً بشرت بدوس عرصاته ثم رجعت الى غرفتها وجثت على

الواصل اليك فاجابه خليل الى ما طلب فخرج العجمي واخذ من الخادم الصرة والكتاب وامره ان يبعد عن الباب كي لا يرتاب بامرهِ احد ودخل السجن وناول الصرة مع الكتاب للخليل فلما رأى الكتاب عرف خط خطيبته عفيفة فوقع مغشياً عليه فلما افاق فتح المكتوب ولما قرأ شعرها وما حواه كتابها اغرورقت عيناه بالدموع فاخذ السجان يعزيه ويسليه ثم فتح خليل الصرة فوجد فيها دنانير بذل نصفها للسجان وفاءً بوعده وقال له لك عندي اكثر من هذا اذا نظرت اليَّ بعين الرحمة وسهلت لي المسالك فوعده السجان خيراً وطلب خليل قرطاساً ودواة فكتب الى عفيفة ما يأتي

ورد الكتاب فلا عدمت اناملاً

كتبت به حتى تضمخ طيبا

فكأن موسى قد اعيد لأمهِ

او ثوب يوسف قد اتى يعقوبا

بينما كنت غارقاً في لجج الهموم اتاني كتابكِ العزيز فكان لي نعم المعزي فلا عدمتكِ ايتها السيدة الشفوقة وانني اشكركِ على هذه المروءة واحمد الله الذي ساقكِ لمساعدتي وحرَّك فؤادكِ الحنون للسعي في فرج كربتي انني بعد الفراق باربعة ايام لم اطق على الفراق صبراً فاسرعت ليلاً قاصداً زيارتكِ واذ دفعتني

ادري أأعز بك ام بنفسي فليس المصاب عندك باعظم منه عندي وانني وان كنت اقاسمك المنار واساهمك المضار فاني احسب الايام اذ اشخطتك واوطئتني ولا اراد الاسهام اذا اخاطتك واصابتني ومن المقرر ان الانسان دائماً ابداً معرض للاخطار فعليك ان تسلم امرك لارادة الله حيث اذ اراد تمم ارادته ونفذ مشيئته وهو القادر على تفريج كربتنا وكفيل بسلامتنا وانني ساسعى وراء تدبير شؤونك ولك صحبة الخادم امانة تستعين بها على قضاء مصالحك ابينما يفرجها الله في تبرئتك على انني لا اغفل ساعة عن تدبير امرك وانا على ما انا مقيمة على عهدك فطب قلباً وقرَّ عيناً عزيزي عفيفة

ثم نادت احد خدامها الامناء وسلمته التحرير مع صرة من الدنانير وامرته بالذهاب لدائرة الشرطة والتحري عن محل سجن خليل وتسليمه الكتاب والنقود يداً بيد فذهب الخادم الى ان وصل لدائرة الشرطة وسأل عن سجن خليل فدلوه واذ برجل عجمي على الباب يحرس السجناء فلم يمكن الخادم من مقابلة خليل دون ان يعطيه شيئاً من المال فاعطاه وعند ذلك دخل السجان وقال لخليل في الباب خادم ومعه كتاب وصرة يريد تسليمها اليك واذ كنت تحت المراقبة فانا لا ابيح لك بالمكاتبة ما لم تقاسمني نصف المال

ملأَت الحاظ عيني كلها مزنًا   فاين لهوي واحبابي ولذاتي
حمدًا لربي وذمًا للزمان فما   اقلّ في هذه الدنيا ملذاتي

ثم جلست تضرب اخماساً لاسداس الى ان هدأ روعها فقالت في نفسها ماذا يفيدني الحزن والبكاء وكيف اعتقد ان خليلاً يرتكب هذه الجريرة وهو المعروف بالتقوى والصلاح أليس من واجباتي الان ان اسعى لخلاصهِ من هذه التهلكة واسعى لاظهار براءته من هذه التهمة أو ما يجب عليّ اولاً وقالت عليّ الان ان اعينه بشيء من المال الى ان يتهيأ له الخلاص ففكرت قليلاً ثم كتبت له

الدهر شيمتهُ يبدي لنا العجبا   فلا تكن من فعال الدهرِ معتجبا
ولا تثق بشراب منه وقت صفا   فيستحيل شراباً صفوه وهبا
ولا يغرك ما يوليك من منحٍ   فكلها محنٌ تزكو به لبنا
ان يسمح الدهر يوماً يسترد غداً   او يحسن الدهر يوماً بالاسى انقلبا
هيهات يجدي الفتى من دهرهِ هرباً
ولو سما فوق افلاك السما هربا
فالصبر اجمل بالحر الكريم على
ما خطهُ قلم الاكدار او كتبا

اني يا مولاي مشاركة لك في همومك واحزانك وانا لا

فرائصها واعتراها الاصفرار فتعجب التاجر وانكر حالها قائلاً مالي اراكِ منزعجة وقد راعكِ ذكر خليل فاظهرت الجلد وقالت له لم يرعني سوى ذكر هذا الحادث الفظيع وطلبت اليه اكمال الحديث فقال لها وبعد ذلك القى رجال الشرطة القبض على الشاب واتوا به الى السجن ولما سئل عن اسباب اقترافه هذا الجرم انكر فعل القتل اشد الانكار وقال انه لا يعرف المقتول مدعياً انه كان اذ ذاك ذاهباً لزيارة احد اصدقائه فزلّت به القدم فوقع على جثة القتيل فتلوثت ثيابه دماً فلم يلتفتوا لدفاعه وعدّوا ذلك حيلةً منه للتخلص من طائلة القصاص واودعوه سجناً منفرداً بعد ان كبّلوه بالحديد وهو الان يقاسي اشد العذاب ولا نعلم ماذا يكون مصيره فاسفت عفيفة لهذا المصاب الذي لم يخطر على بال احد وتظاهرت امام الرجل بعدم الاكتراث وارادت ان تصرفه عنها فقالت له انه يعوزني بعض اقمشة حريرية ولاجلها دعوتك فسأذهب بذاتي وابتاع من محلك ما يحلو لي فقال سأقتبلك على الرحب والسعة يا سيدتي وودعها عائداً من حيث اتى وبعد ان خلا بها المكان جاش بها الحزن وغلبها البكاء ثم قالت تعاتب الزمان

يا دهر ويحك قد اكثرت فجعاتي

شغلت ايام دهري بالمصيبات

طلبه وسلم ادارة مخزنه الى وكيله الاول وذهب مع الخادم الى ان دخلا دار السيدة عفيفة وبعد ان حياها سألها عن حالها وقال لها يا سيدتي لقد مضى زمانٌ طويل ولم اتشرف بخدمةٍ لحضرتكِ اقضيها فاجابته انه لم يعزني شيء قبل الان لانني منذ وفاة والدتي هجرت الاهل والخلان ولازمت داري مستسلمةً للاحزان ثم سألتهُ عن احوال تجارته وحوادث البلدة فقال لها اما تجارتي فالحمد لله هي غاية في النجاح واما المدينة فامينة لولا حادث وقع في هذه الايام فسألته وما هو فاجاب انه يوجد رجل من تجار هذه المدينة الاغنياء يدعى مزهر له ولد وحيد اسمهُ فريد فأحسن تربيته وعلّمهُ ولما بلغ رشدهُ اشغله معهُ بالتجارة وكان يأتي مع ابيه كل يوم الى السوق لمعاطاة الاشغال ولكن اخيراً عاشر بعض الشبان الفاسقين فعوَّدوه على شرب المسكرات والسير في الطرق الخارجة عن خطّة الآداب وحيث لم يكن لابيه سواه تغافل عنه ولم يمنعه عن غيّهِ وهواه فمنذ خمسة ايام بينما كان متغيباً ليلاً عن البيت وجدهُ الحرس مقتولاً في شارع اصبهان المؤدي الى هذا البيت واشار اليهِ وعلى قربٍ منه رجل من ادباء مدينتنا معروف بالفضل والتقوى يسمى خليل بن ابراهيم فامسكوه واذا على ثوبه اثار الدم فلما سمعت عفيفة ذكر خطيبها خليل ارتعدت

الضيق ومع ذلك اراك ناعم البال قرير العين فقال تعزيتي ست عبارات تذكرتها وهي الأولى الثقة بالله عزَّ وجلَّ والثانية كلما شاء الله كان والثالثة الصبر خير ما يستعمله الممتحن والرابعة اذا لم اصبر فماذا اصنع والخامسة فقد يكون اشد مما انا فيه والسادسة من ساعة الى ساعة فرج

كن حليماً اذا بليت بغيظٍ وصبوراً اذا اتتكَ مصيبه
فالليالي من الزمان حبالى مثقلاتٍ يلدنَ كل عجيبه

وتحادث ساعة مع السجان وهو يعزي نفسه بالصبر اما عفيفة فقد مضى عليها عشرة ايام ولم تأخذ خبر عن خطيبها واذ كانت على جانب من الأدب وكان حبها له حباً ظاهراً لم يخامره ريب بل عدت ذلك مسبباً عن اشغاله واذ كانت هي كذلك مهتمة بتدبير شأنها وما يلزم لها من المهمات فلم يخطر ببالها شيء من امر غيابه لا سيما وانها كانت متحجبة عن الناس فلم يحط علمها شيءٌ من حادثة القتيل حتى استدعت في بعض الايام اليها خادمها وأمرته ان يستحضر لها يوسف بن حنا التاجر المعروف بشيخ التجار والمشهورة بضاعته في الحسن والرونق وهذا الرجل كان عميل والدة عفيفة فذهب الخادم الى المدينة ودخل مخزن التاجر وقال له ان سيدتي عفيفة تدعوك لمنزلها فعلى الفور اجاب

الخفايا انت عالم بتهمتي اسألك العفو عن ذنوبي ومنّ عليّ باصلاح عيوبي واجعل التقوى زادي وفي دينك اجتهادي اذ عليك توكلي واعتمادي ثبّتني على نهج الاستقامة واعزني في الدنيا من واجبات الندامة يوم القيامة وخفف عني ثقل الاوزار وارزقني عيشة الابرار واصرف عني شر الاشرار وارحمني يا ارحم الراحمين باظهار براءتي بين العالمين ثم انشد وقال

انّي اليك مدى الساعات محتاجُ لو كان في مفرقي الاكاليل والتاجُ
وانت حاجتي الكبرى فلو ظفرت بما ارادت يدي لم يبقَ لي حاجُ
وليس عندك شيءٌ انت مانعهُ بل سيل جودك سيال وثجاجُ
لكنني انـا محجوبٌ بمعصيتي ونور عفوك يا ذا الحلم وهاجُ
يافارج الهمّ فرّج ما بليت بهِ فمن سواك لهذا الهم فرّاجُ

وبعد ان انتهى من شعرهِ جثى على ركبتيهِ ثانيةً وقال اللهمَّ احرسني بعينك التي لا تنام واكنفني بحفظك الذي لا يرام لا اهلك وانت رجائي فكم من نعمةٍ انعمتها عليّ قلّ عندها شكري فلم تحرمني وكم من بليةٍ ابتليت بها قلّ عندها صبري فلم تخذلني فاسلم لك ذاتي اذ كنت ادرى بامري وبعد ان تمم دعاءهُ رقد في السجن الى الصباح حيث اتى السجان فسأله عن حالهِ فاذا هو مشروح الصدر مطمئن النفس فقال لهُ انت في هذه الحالة من

حيث لا نعلم ولما لم يرجع اخذنا نسأل عنه فابلغنا الناس واسفاه خبر وفاته مقتولاً ظلماً وعدواناً كما علمت وان هذا الرجل (واشار الى خليل) هو الذي قتله عمداً وقطع بفقده قلوبنا الحزينة فنطلب باسم العدل قصاصه واستيفاء الدية من ماله فالتفت عندها الامير الى خليل وقال له ان هذين يدعيان عليك بما سمعت و يزعمان بانك قاتل ولدهما عمداً دون سبق معرفة بينكما مستدلين على ذلك بوجودك حيث حدث القتل و بآثار الدم التي نراها على اثوابك فقال خليل الله يعلم يا مولاي انني لم اعرف هذا المقتول قط ولم اقترف هذا الجرم وما انا من ذوي الشبهات بل كان مروري بالامس صدفةً فوقعت على الجثة على نحو ما ذكرت فاخذ العامل يفكر في الامر ثم امر باعادته الى السجن فعند ذلك اخذ خليل ينوح مردداً هذه الابيات

يا اله السماء اني انادي ... وعلى فضلك العميم اعتمادي
ليس يخفى عليك ما انا فيه ... انا ملقىً فوق شوك القتاد
سجنوني و بالغوا في امتحاني ... ويح نفسي لغربتي وانفرادي
ان اكن مفرداً فذكرك انسي ... وسميري اذا منعت رقادي
او تكن راضياً فلست ابالي ... انت تدري بما حواه فؤادي

ثم تنفس الصعداء ورفع رأسه نحو السماء قائلاً اللهمَّ يا عالم

فقضى في السجن ليلة دهماء تتراوحه الاحزان وتنتابه الهموم فضاق ذرعه وزادت شجونه ولكن ما الحيلة

يريد المرء ان يعطي مناهُ ويأبى الله الاَّ ما يريدُ

ثم اخذ يفكر في اتجاه هذه التهمة عليه وما ينجم عنها من انحراف الناس عنه وانحطاط قدره فقال ما هذه الدنيا الغدور التي لا تعاند الاَّ ذوي الفضل ولا تعامل الاَّ على الابرياء

يقصد اهل الفضل دون الورى مصائب الدنيا وآفاتها

كالطير لا يحبس من بينها الاَّ التي تطرب اصواتها

وما زال يعاتب الدهر ويتأمل في صروفه واحواله العجيبة حتى اصبح الصباح فتقاطر الناس لينظروا عقوبته ولم يبقَ احد في المدينة الا وقد جاء يستطلع طلع الخبر فجاء العامل لدائرة الشرطة وأمر باحضار المتهم فاقبل يحجل بقيوده والناس عليه متأسفون متوجعون والنساء منتحبات باكيات واذ برجل وامرأة عليهما اثواب الحداد يصرخان وما زالا يزدادان صراخاً الى ان تمثلا امام العامل فأمرهما بالسكوت وسألهما عن دعواهما فقال الرجل ليعلم مولاي الامير انني وزوجتي هذه من هذه المدينة نتعاطى بها التجارة وليس لنا سوى ولدٍ وحيد احسنا تربيته وتهذيبه حتى بلغ سن الشباب واتخذ له خلاناً واحباء فليلة امس ذهب عنا الى

الوالي عن جلية الامر فتقدم رئيس الجند وقال له بينما كنـا مارّين مع العسس اذ وجدنا جثة قتيل وهذا الرجل يهرول في مشيه منفرداً مذعوراً وعلى ثيابه آثار الدم الدال على اقترافهِ الجريمة فامسكناه منتظرين اوامرك فغضب الوالي وسأل خليلاً عما اتهم به فانكر كل الانكار وقال حاشا يا مولاي ان ارتكب مثل هذا الجرم الفظيع وما انا الاَّ من اهل العرض والناموس والادب ولا سابقة لي باجتراح الكبائر ولكن المقدر ساقني الى هذا المحل فزلت بي القدم فوقعت على الجثة فتلطخ ثوبي بالدم وادركني الجزع والوهم ونهضت امشي مسرعاً واذا بالشرطة قد لحقوا بي وامسكوني كما ترى فلم يصدق الوالي قوله بل أمر بسجنه واجراء الفحص بدقةٍ توصلاً لاظهار الحقيقة فلما اتوا به الى دائرة الحكومـة اعادوا سؤاله فاستأنف الانكار فقيدوه واودعوه سجناً مظلماً بعيداً عن سائر السجناء ممنوعاً من مقابلة الناس فلما خلا به المكان اسالت عيناه الدمع مدراراً وفكر في مصيره فقال

يعاندني دهري كاني عدوه
وفي كل يوم بالكريهة يكفاني
فان رمت خيراً جاء دهري بضدهِ
وان يصفُ لي يوماً تكدر في الثاني

عند ذلك رفعت الفتاة رأسها واجابته بالقبول ايماءً واشارةً ثم تصافحا بالايدي مصافحة الارتباط وتعاهدا معاهدة الوفاء والاخلاص وجعلا موعد الزفاف بعد ثلاثين يوماً لكي يتمكن كل منهما من تدبير شؤونه وتجهيز لوازمه وعلى الاثر ودّع خليل عفيفة ذاهباً الى داره وحال وصوله اخذ يسعى باصلاح شأنهِ وتدبير معدات زواجهِ وبعد اربعة ايام بينما كان منهمكاً بهذه الامور وقد ذهب ليزور خطيبته ليلاً فلما اغربت الشمس وخيم الظلام دخل في شارع مظلم وبينما كان مسرعاً في مشيه وهو غافل عن حوادث الدهر الغادر عثرت رجله بجثةٍ ملقاة في الطريق فوقع عليها ثم نهض متأملاً ذاته فرأى ثوبه مضرجاً بالدماء فاعاد نظره بالجثة واذا بها جثة قتيل صدره ممزق بالجراح فارتاع خليل مذعوراً واخذ يسرع في الجري خشيةَ ان تقع عليه العيون فيتُهم واذا بالشرطة احاطوا به احاطة المعصم بالسوار واجتمع على اصواتهم الخلق فكان البعض يرثي له والبعض يضحك عليه وهم بين مصدق ومكذب فكثر القيل والقال وارتفعت الضوضاء فطار الخبر الى عامل المدينة فاسرع بالمجيء الى محل الحادثة ومعه بعض الحكام فرأوا الخلق مجتمعين مزدحمين وخليل بينهم كالطائر في القفص وهو حزين كسير القلب فسأل

الفصل الخامس

في عقد الاتفاق والزواج وتهمة خليل في جناية

ثم تبادلا عبارات الحب والاخلاص فقال خليل ايتها السيدة

الحب افضل ما نحويه فهو لنا كالروح للجسم او كالنور للعقلِ

ومعلوم ان الحب الحقيقي الصحيح المقرون بالامانة والوفاء والمجرد عن الغرض يدوم مدى الحياة وبالعكس الحب الفاسد لا يطول اذ يعقبه عدم الارتقاء ويتحول الى النزول ثم يزول فمن اراد الاقتران فمن الحكمة ان يعاشر من اختارها زمناً قبل الزواج لكي يختبر كل منهما الآخر ويدرس اخلاقه وبعد ذلك اذا رأيا في الاخلاق تناسباً وبالقلوب اتحاداً اقدما على الزواج ولست اقضي بذلك على كل انسان بل على بعض الشبان والشابات الذين يدفعهم الحب الغرامي الى الزواج دون تروٍّ ولا .. فتلحق بهم الندامة اما نحن فقد عرف كل منا الاخر فلا مانع يمنع حبي الطاهر والمقرون بالامانة والوفاء فارجو اذا تنازلتِ لاجابة طلبي بموافقة اقتراني بكِ واقترانك بي فاطرقت الفتاة حياءً ولبثت صامتة تأدباً وقال خليل معلوم ان امر الزواج وارتباط عقده موكول الى الوالدين اللذين من واجباتهما القيام بها ولكن اذا كان العروسان لا والدين لهما نظيرنا فلا مانع من مباشرتهما الامر بانفسهما

ايها الفاخر جهلاً بالحسب   انما النـاس لأمٍ ولأب

انما الفخر بعقلٍ راجحٍ   وبأخلاقٍ حسان وأدب

وبالجملة على كل سيدة عاقلة ان تجتنب الكبر والادعاء ولا تضيع اوقاتها بصباغ وجهها وتحويله وتغيير صورتهـا الطبيعية التي يرتاح الناظر الى رؤيتها اذ الجمال جمال الآداب وابقاء صورة الوجه على حالته الطبيعية كما رسمه الباري تعالى اذ ان الجمال الطبيعي محبوب وبعكسهِ الاصطناعي فمكروه فهذا ما تبين لي ايتها السيدة ان اتلوه على مسامعك فنهضت عفيفة وحنت رأسهـا للاستاذ دلالة الشكر ومعرفة الجميل وحيث كان قد طـال الوقت بينهما سألته اذا كان يريد مناولة الطعام فاجابها بالرضوخ وعلى الفور ذهبت ثم احضرت الطعام واصلحت اواني المائـدة بذاتها ودعت الحكيم واجلسته الى جانبها وأمرت الخدام ان تقدم آنية الطعام وقدمت له واخذت تؤانسه وتتناول معه من الطعام وتلاطفه بكل بشاشة وبعد ان اكتفيا اخذا ما تيسر من الحلويات وبعد غسل الايدي عادا الى حيث كانا

وتسلب راحة العائلة وتحرم الاولاد منافع التعلم وصون الصحة بخلاف الامرأة العاقلة المتحلية باللطف والرقة والشفقة والحنوّ ومن واجبات السيدات ايضاً معرفة العلوم وحفظ الصحة وان يكون لها اطلاع على مقتنيات زوجها وثروته وعلاقاته الداخلية والخارجية وذلك تداركاً لوقوع الخلل الجسيم الذي كثيراً ما يطرأ بعد وفاة الرجل اذا لم يكن له بنون راشدون او لم يكن لزوجته المام بحالته المالية فيجب والحالة هذه ان تكون المرأة عارفة بكلما يلزم ولكن يسوغ لها ان تكاشفهُ بغير ما نحن في صددهِ شبيه الاصطلاحات والعلاقات التجارية التي لا يسوغ ان يطّلع عليها سواه و بالاجمال على المرأة ان تعتني بترويض عقلها لتكون سعيدة وتجعل زوجها مسروراً اذ ان العقل ينبوع السرور الغير المتناهي وكنز لا يفنى ومن احرزت هذه الصفات تكون بالحقيقة ملكت العالم وكم من السيدات التي حصلت بذكاء عقولهنّ على اعظم شهرة ويكفيكِ ايتها العاقلة شاهداً لتأييد قولي اولئك السيدات الممتازات اللواتي تبوأنَ عروش الممالك بما لهنّ من سمو المدارك وعلى السيدة العاقلة ان لا تغتر بنفسها وتنظر الى جمالها اكثر من ان تنظر الى عقلها ولا تفتخر باصلها وحسبها اكثر ما تفتخر بأدبها ولقد قيل في المعنى

مبادي الدين والتقوى والحق وتعلم الآداب والفضائل وتعمل اعمال الشفقة والرحمة وتتحلى بحلى الرصانة وتحسن معاشرة بعلها وتعاونه وتساعده في اشغاله وان لم يكن لها معرفة بها لتقوّي عزمه وتريح افكاره وتسليه على الهموم والاشغال اذ هي قادرة على صون صحته وتجديد قوى عقله بالبشاشة والقناعة وتجتنب ان تسمعه تذمراً او شكوى حيث يوجد بعض الرجال المنكودين الحظ المتزوجين من نساء جاهلات يجلبنَ عليهم المتاعب مثل ذلك اذا عاد الرجل من اشغاله الى منزله ليرتاح من مشقات الاعمال ومتاعب معاملة الخلق فلا يلبث ان يدخل منزله حتى يسمع ضوضاء ويرى اختلالاً ثم تأتيه سهام اللوم من تلك الامرأة الجاهلة ناشئة عن سوء خلقها وضيق صدرها وضعف حبها ولا تدعه يستريح من الصدمة الاولى حتى تبادره بالثانية وهي شكوى التعب ومشقات التربية وادارة الخدم وطلب اشياء لازمة وغير لازمة واللوم على التقصير والنسيان فينغص بطعامه وتسلب راحته في جلوسه ومنامه ولا يلبث الى ان يُبلى جسمه بالامراض وعقله بالضعف ويلتزم ان يعتزل عن البيت ويتجنب معاشرة تلك الزوجة طالباً السلوى وبذلك خراب البيوت وانحطاط العيال المنبعث عن عدم مراعاة الامرأة اقتدار بعلها وهذه البلوى تسبب الخلاف

ولا ينبغي ايضاً السير مع الشبان في المتنزهات العمومية ولا مع الشابّة الطائشة او الخفيفة العقل محافظةً على الشرف وان لا تكون المحادثة في المتنزهات العمومية بامور عمومية وعلى السيدة ان تتحاشى التلفظ بصوت مرتفع او تسمية اشخاص ومما ينافي الآداب استراق السمع لمعرفة احاديث الغير وبالاجمال ان تلازم الرصانة في المتنزهات العمومية وفي عودة السيدة لا يقتضي سرعة المشي في الشوارع لانه دليل قطعي على قلة احترام البنت نفسها وعلى كثرة خفتها وطيشها ومن الواجب ان تتجنب امعان النظر الى العربات والشبابيك والوقوف في المحلات العمومية اذ يُعد ذلك فضولياً فقالت عفيفة احسنت يا مولاي وارجو ان تفيدني عن واجبات النساء المتزوجات فاجابها لا يخفى عليك ان المرأة هي عنصر من العناصر التي تتألف منها الهيئة الاجتماعية بل هي الرباط المتين الذي يربط افراد الهيئة بعضها ببعض ومن واجباتها ترتيب العائلة وحفظ نظامها وادابها ونمو فضائلها لانها ربّة العائلة والبيوت القائمة بتدبيرها وترتيبها اذ هي الكافلة راحتها وسعادتها ومن المقرر ان المرأة هي استاذ العائلة ومربيتها منذ المهد فعليها ان تبذل كل الجهد في سبيل ترقية داخليتها وتعليم اولادها اذ ترضعهم الباَن التربية الصحيحة ومن واجباتها ان تتمسك في

بالشمس وتتجنب اظهار البشاشة في غير حينها وازعاج الناس بكثرة الشكوى بل في كلتا الحالتين تحسن تلطيف الاحزان واستجلاب الخواطر ومما يجب الانتباه اليه وضع الانامل في الانف اذ انه مكروه الى الغاية فضلاً عما يتولد عنه من التقريح والرائحة الردية والحاصل ينبغي ملاحظة جميع قوانين الحشمة والنظافة وعلى السيدات ان يتجنبنَ حمل مناديلهنّ بايديهنّ لان ذلك من قبيل الخلاعة فاجابته عفيفة اشكرك يا مولاي لانك خلبت لبي بمعارفك وارجو ان تزيدني علماً بما يقتضي استعماله لرياضة الجسم فاجابها الاستاذ ان لسوالكِ هذا اهمية كبرى اذ يترتب عليه امران احدهما حفظ الآداب والثاني الرياضة الجسمية التي بها تتقوى الاعضاء وتتحرك الحركة البدنية وبها يتحرك الجسم فتنتبه وظائفه وينتعش وهو امر ضروري غير انه يشترط على السيدات عند خروجهنّ من البيوت ان يتجنبنَ بعض المحذورات كخلاعة كثيرين من الشبان وسفاهة بعض الاولاد عديمي التربية الى غير ذلك مما هو جدير بالرعاية واذا ارادت السيدة التنزه فعليها ان تختار المكان الذي ينتابه اشراف القوم وادباؤهم وان تتجنب المحلات التي يطرقها اهل الخلاعة الذين لا يذهبون للمتنزهات لقصد تمرين اعضائهم بل لغاية نحن في غنى عن ذكرها

تلك السيدة من اولئك السيدات اللواتي اسعدهنَّ الحظ وكنَّ مثريات والا فتشتغل تلك المرأة لنفسها بنفسها وخلاصة ما يقال ان الخدام يحسنون الدراية في تدبير المنزل اقتداءً بسيداتهنَّ وهكذا تنظيف البيوت وغسل الآنية فاجابته عفيفة احسنت يا مولاي وارجو ان تزيدني علماً بجلوس السيدات في الهيئة الاجتماعية قال الحكيم من المعلوم ايتها السيدة ان منزلة البنات هي غير منزلة الشبان لانهنَّ عرضة للانتقاد فعليهنَّ والحالة هذه الاعتدال بكل عمل والتزام جانب الآداب بجلوسهنَّ ومشيهنَّ وجميع حركاتهنَّ وسكناتهنَّ وان لا تضع الواحدة منهنَّ احدى رجليها فوق الاخرى وتنوب مناب الخطيب لدى التكلم بالايماء باحدى يديها وجهارة الصوت الى غير ذلك مما يخالف الناموس الطبيعي فاذا خالفن هذه القاعدة جعلنَ انفسهنَّ عرضة للانتقاد لا سيما اذا سخرنَ بالغير وما احكمنَ جلوسهنَّ والتزمنَ العناد والخيلاء وما اهتممنَ بسوى الزينة وتنسيق الملابس واعرضن عن الكمالات الانسانية لان الهيئة الظاهرة تدل على عواطف القلب ومكنونات الصدر ويعوز المرأة ايضاً ان تحفظ رأسها بصورة مستقيمة بحيث لا ترفعه ولا تخفضه ولا تميل الى احد الجهات الا وقت الضرورة وتتجنب حك الرأس باليد واللعب

حجر عثرة لناموسهن ولما كان من المعلوم ان السيدات نزهة الدنيا فيليق لهن التزين بالآداب لا تضييع اوقاتهن بزخرفة الملابس وترتيب شعورهن مهتمات بجعل انفسهن اصناماً مزخرفة وتماثيل مبهرجة وهذا مخالف قاعدة الادب ومن المتوجب ايتها السيدة على كل شابة ان تحترس من الخروج عن حدودها وتجتنب بذل الدراهم في هذا السبيل ولبس ما ليست كفوءاً له حيث لا يزيدها مقاماً بل يحط بشرفها ولا ريب في ان بنات الاشراف في ايامنا هذه تتهافت على بساطة الملبس اذ ان زخرفته مجلبة الدمار وبالجملة يجب عدم التشبه والاقتداء لان ذلك انما هو داعٍ الى البذل والاسراف وسوء العقبى فكم من واحدة ابتاعت اثواباً اضطرت الى استبدالها باليوم الثاني لتبدل المودة ولا يخفى ما وراء ذلك من التعب العظيم على الزوج فاجابته عفيفة احسنت يا مولاي وارجو ان تزيدني علماً بما يلزم الفتيات من تدبير شؤون بيوتهن فاجابها اولاً معرفة تحضير الاطعمة على طريقة تجمع ما بين النظافة والاتقان والتوفير ولا اقصد بذلك ايتها السيدة ان اقضي على كل شابة ان تباشر بنفسها اشغالها بل تكون عارفة بكل ما هو تحت ادارتها وتكون لها الدراية التامة في ترتيبها فتحكم حينئذٍ على الخادمة او الطباخة حكماً قانونياً فيما اذا كانت

الفصل الرابع

في اداب البنات وواجبات السيدات

قال الحكيم ايتها السيدة لقد فقتِ نساء العصر بالآداب وامتزتِ عنهنَّ بعلو الرتب وهاانا ذا مجيبكِ عن كلما تسألين وشارح لكِ كلما تجهلين فقالت له يا مولاي افدني عن اللبس وآدابه فاجابها بكل بشاشة لا خفاكِ ايتها السيدة ان القصد بالملابس وقاية الجسم من المؤثرات الخارجية الناشئة عن تقلبات الفصول او اختلاف الاقاليم وقد يخالف المراد منها ما يكون على هيئة تضغط الجسم وتمنع نموه الطبيعي اذ البعض من السيدات تستعمل الملابس الضيقة كالمشد مثلاً وخلافه الذي يحدث ضرراً في الاعضاء على ان الملابس قسمان الاول يشمل الملابس التي تلامس البدن والتى يجب تبديلها لما يلتحق بها من البخار الجلدي الذي يخرج من مسام البدن خروجاً غير محسوس للعين والقسم الثاني الاردية الخارجية التي يدعو الى تبديلها نظام الهيئة الاجتماعية كلما دعت الحاجة ويمكن استعمالها ما دامت نظيفة اذ ان القصد منها احاطة البدن بسياج العفاف وتصويره بصورة الوقار والهيبة اذ لا يجوز للسيدات الاديبات استعمال اثواب الخلاعة والقصف الى غير ذلك مما يدل على غير الحشمة اذ هي

الاستاذ ان لي من الثروة ما يعطيني ايراداً سنويـاً مائة وخمسين الف قرش لعمري ان هذه الثروة تكفي لمعاش زوجين صالحين مهما تناسلوا ولكن يعوزني العلوم والآداب التي اعد نفسي ملكتها الان برافقتي رجلاً حكيماً نظيرك وقال احد الفلاسفة المشهورين افضل كثيراً رجلاً حكيماً بلا مال على مال بلا رجل فلا يعوزني شيء منك الاَّ ان يتحفني مولاي بعلوم يتلوهـا على مسامعي التي من شأنها ضمان مستقبلي كي اتمكن من اقتطاف ثمارها اذ انبه عقلي بحكمة وابتعد عن كلما يرشدني للابتعاد عنها لان من المعلوم ان النساء لا يكنَّ سعيدات بجمالهنَّ بل بخصالهنَّ وادبهنَّ لان الجمال هبة الطبيعة وهي عما قليل تزول ولا تثبت زمنـاً طويلاً حتى تلعب بها يد الذبول ومتى تعرَّت صاحبتها من ذلك الجلباب اصبحت سخرية في اعين معتبريهـا مجردة من الآداب اما الصفات المعنوية فهي العنصر الادبي الذي ترضعه البنت منذ نعومة الاظفار في مهد الطفولية وهي التي بواسطتها تزداد ثروتها وتجعل الشرف الاعظم لاهلها ثم لبعلها ثم تورثه لبنيها فمن كانت هذه صفاتها ينادي لسان حالها قائلاً على المال السلام لان الكمال الادبي والجمال الطبيعي لها اعظم ثروة للمرأة فسر الحكيم اطلاقة لسانها وعذوبة الفاظها

الامرأة التي تعتني بترويض عقلها لتزداد كرامتها وتجعل الناس ان تشير اليها بالبنان وتمدحها بكل شفةٍ ولسان وعليَّ الان ان اسرع لزيارتها واتشرف بمقابلتها وعلى الفور تسربل خليل بملابسه الحسنة واخذ ما يعوزه من النقود وصحب معه خادمه الامين يوسف وذهب لبيت السيدة عفيفة وبحال وصولهما قرعا باب دار السيدة واستأذنا بالدخول فاستقبلته تلك الفتاة بكل احترام وادخلته قاعة الجلوس حيثما استراح ونقدمت له المرطبات وبعد هنيهة كررت الترحاب مستفسرة عن صحته فاجابها بكل لطف شاكرًا لها حسن الاستقبال وبعد انصراف الخدم قال لها سيدتي ربما اساءك كتابي اذ ان ما استولى على قلبي من الحب الطاهر دفعني لكتابة ما كتبت وبما انك لا تغفلين عن ادراك الحقايق ومن واجباتي ان اطلعك على احوالي واحيط علمكِ بما انا عليه فاقول انا رجل لا املك ما يكفل لنا حسن مستقبلنا الاَّ ما يرزقه الله واني شديد الحزن على ذلك وهذا طالما كان يوهمني ان لا تجيبي طلبي فتبسمت عندئذٍ الفتاة وقالت يا مولاي ان الغني حسن الخلق والاداب لا غنى المال وان الرجال الذين مثلك لا يحط بقدرهم الفقر اذ انهم اغنياء بالعلم والآداب ولماذا يروعني هذا ألست غنية انا أَلا تكفي ثروتي اثنين او ثلاثة أَو لا يعلم حضرة

حبيبي الودود

ان كتابك اللطيف قد نشلني من الضريح الذي كنت على وشك الوصول اليه ولم يخامرني شبهة قط في صدق ولائك ولم يكن عندي شك في ان الحب الطاهر يسود ويفوز على جميع العوارض والعوائق وهاانا‌ذا اهديك عواطف قلبٍ قد تجددت حياته بك واملكك نفساً تطفح مسرةً راجية توطيد دعائم الحب الصحيح بيننا الثابت المقرون بالامانة والوفاء اذ به تتوفر لنا السعادة ويبتسم الهناء وعلى امل قرب مرآك اهديك السلام المخلصة

عفيفة

ولما انتهت من كتابها ختمته ودعت الرسول وسلمته اليه وكان خليل في اثناء غياب الرسول مضعضع الافكار خشية ان الفتاة تمتنع عن اجابة طلبه وبفروغ صبر كان ينتظر ورود الجواب واذ دخل الخادم وناوله كتاب السيدة طفح قلبه بالسرور لا سيما عند ما قرأ كتابها وخاطب نفسه قائلاً لا انكر ما لهذه السيدة من الفضل والآداب وقد ازداد تعلقه بها عند ما بلغه الرسول أمر اختلائها في الغرفة المعدة للصلاة ودعاها لله سبحانه وتعالى لانه كان يسمعها من وراء حائط الغرفة الملاصق للغرفة التي كان مقيماً فيها فحينئذٍ قال خليل ان زواجي بها زواج سعيد لان هذه السيدة تشبه

والسلوى لبني اسرائيل اللهمَّ يا من نصرت داود النبي اللهمَّ يا من وهبت الحكمة لسليمان النبي اسأَلك المغفرة عن ذنوبي اذ ان رحمتك اوسع من ذنبي ثم اهدني يا ارحم الراحمين الصراط المستقيم وارشدني الى ما فيه الخير والصلاح اذ انك على كل شيء قدير

فما اتمت الفتاة صلاتها حتى اتاها هاتف من عند نفسها ان امر افتكارك بضمان المستقبل لايجاد ثروة مع الفتى لا محل له لان الحكيم وان كان فقيراً لا يعوزه المال وهو حسن الآداب حميد الخصال وهذه الفضائل اذا اجتمعت في انسان لا تختم في نسيان ومن كان حاصلاً عليها عاش مع امرأته بهناء وسرور وفكرت كذلك مخاطبة ذاتها انني ذات ثروة كافية تضمن حياتي وحياة رفيقي وما ينعم الله علينا به من النسل وامر مجاوبتي له واجابتي لطلبهِ لا يغاير سنة الطبيعة اذ كنت وحيدة ومن المعلوم ان الله خلق الانسان ضعيفاً محتاجاً الى من يحبهُ ويكون منه محبوباً بل مفتقراً الى قلبٍ يفرح لفرحهِ ويشاطره الاحزان ويسعى في سبيل راحتهِ ويتعاون معهُ بقطع مراحل الحياة ولذلك قالت الحكماء اتحاد الزوجين اساس البيت واشتراكهما في المصلحة فيه التناسل والعائلة فاذا الله الهمني لاجابة طلبه وعليَّ الان ان اجيبه على كتابهِ قالت هذا ثم تناولت قرطاساً وكتبت عليه ما يأتي

من الميل كانت تكلم الرسول بالسكينة والهدو وبعد ان صرفت الرسول لغرفةٍ ثانية قرأت الكتاب ولدى تمعنها بما تضمنه اطرقت الى الارض ساعة واخذت تكلم نفسها قائلة ماذا استطيع ان اكتب له لا انكر ان قلبي تعلق بحبهِ لما عرف به من الآداب ولكن يعوزني ان يكون ذا ثروة تضمن مستقبلنا واستمرت اكثر من ثلاث ساعات تضرب اخماساً لاسداسٍ مفتكرةً بما يقتضي مجاوبة هذا الحكيم الى ان قامت من غرفتها ودخلت غرفة ثانية مفروشة على غاية الانتظام وجثت على ركبتيها ورفعت رأسها نحو السماء قائلةً اللهمَّ انني اسألك بـاسمك الاعظم الذي اذا دعيت به على مغالق ابواب السماء للفتح الرحمة انفتحت واذا دعيت به على مضايق ابواب الارض للفرج انفرجت واذا دعيت به على العسر لليسر تيسرت واذا دعيت به على كشف البأس والاضرار انكشفت يا من خلقت السموات والارض وخلقت الظلمة والنور وخلقت الشمس والقمر وخلقت الكواكب وجعلتها نجوماً وبروجاً فاحسنت تقاديرها وصورتها فاحسنت تصاويرها واحصيتها باسمك احصاءً ودبرتها بحكمتك تدبيراً فاحسنت تدبيرها وسخرتها بسلطان الليل وسلطان النهار والساعات وعدد السنين والحساب وجعلت رؤيتها لجميع الناس مرأىً واحداً اللهمَّ يا من انزلت المن

صديقتي العزيزة

لقد أبت عهود المودة ان تنسيني شخصكِ المحبوب وان قلبكِ الطاهر يؤكد صدق مودتي ولذلك لم ارَ بدًا من تسطير هذه الرسالة لاطلاعك على ما بي من ألم الفراق لعلّ قلبك الشفيق متى وقف على سر كتابي يكون عندكِ شفيعًا لي لقد جرت العادة عند بعض الاحباء ان يحاولوا اخفاء الغرام بزعمهم ان اباحة ما في الفؤاد من اسرار الهيام يحط من كرامتهم اما انا فاحسب هذا السكوت رياء ولا اجاريهم عليه فاقول ولا اخشى اللوم انني احبُّ واني افتخر بحبي لسيدة قد امتازت في الادب والفضل وفاقت في المعارف واتصفت بالعفة وحبي هو شريف اذ اود ان تكون رفيقة حياتي فاذا تهيأ لي الاقتران بمن أحبهُ قلبي اعد ذاتي سعيدًا فالرجا يا سيدتي ان تجيبي طلبي اذ اني اعلل نفسي بالآمال سائلاً الله ان يلهمك الى ما به الخير الذي يضمن مستقبل كل منا والسلام

كاتبه

خليل

ثم ختم الرسالة وسلمها الى خادمه يوسف وامرهُ بسرعة ايصالها فذهب الرسول وعند وصوله الى دار عفيفة ناولها كتاب سيده فاخذته من يده وسألت عن حاله ورغمًا عما كان مستحوذًا عليها

يا قلب بشراك ايام الرضى رجعت
وهذه الدار للاحباب قد جمعت
اما ترى نفحات الحي قد عبقت
انفاسها وبروق القرب قد لمعت
فعش هنيئاً بوصلٍ غير منفصلٍ
مع من تحبُ وحجبُ الهجر قد دُفعت
وانظر جمال الذي من اجل رؤيتهِ
قلوب عبادهِ في حبهِ انصدعت

فجلسا ريثما استراحا وقدمت لهما المرطبات واذ كان خليل مسروراً بكلما تيسر له عرضت عليه عفيفة شيئاً من الخمر فاجاب سلباً وقال لها يا سيدتي لم اعوّد نفسي على شرب المسكر حيث قالت الحكماء الخمر مصباح السرور ولكنها مفتاح الشرور وعُرض على احدهم ان يشرب خمراً فقال انا لا اشرب ما يشرب عقلي ولله درّ القائل في هذا المعنى

لعمرك ما يخفى على الناس شرّها وان كان فيها لذةٌ وهناءُ
مراراً تريك الغيّ رشداً وتارةً تخيّلُ ان المحسنين اساؤوا
وان الصديق الماحض الود مبغض
وان مديح المادحين هجاءُ

بطول شبابك واني اجلُّ عاقلةً مثلكِ ايتها السيدة عن ان تسترسل الى الحزن وتستسلم الى الجزع واليأس بل أُرى الاولى بك ان تعتصمي بالصبر وتسلمي للمولى الامر · فعاد رونق وجه عفيفه الى جمالهِ بعد ان كان مشوبًا بالاصفرار وقالت يا مولاي ان الله ارسلك اليَّ مؤدبًا ومؤانسًا لتزيل ما في فؤادي من الهموم والاحزان فله الشكر والمنة ثم قالت هل لك ان ترافقني الى الحديقة فلبَّي وفي الحال أمرت احد خدامها ليفتح باب الحديقة السرّي الواقع جنوبي الدار ودخلا فهبت عليهما نسمات الاشجار ثم سمعا اشارات الشحارير بافنانها · والزهور تتلون بالوانها قد كانت بالحقيقة حديقةً نادرة النظير يتخللها الانهار جارية بين الاشجار وقد راق اديمها وعلى نسيمها ونمى طيبها وغنى عندليبها وتحركت عيدانها وتمايلت اغصانها وتبلبلت بلابلها وتسلسلت جداولها وتصرحت انهارها وتضوعت اقطارها ونمقت ازهارها وصوت هزارها فقال خليل يا لها من روضةٍ ما اهناها وخلوةٍ ما اصفاها وتمنى ان يقضي سائر عمره في هذه الحديقة اما عفيفة فكانت تتفرس به وتتأمله الى ان وصلا لجانب نهرٍ في وسط الحديقة منصوب بجانبه مظلة من الحرير الاخضر قائمة داخلها كراسي الصندل مكتوب على جوانبها بالذهب الخالص هذه الابيات

فكيف نغرم بالدنيا ولذتها يا من يعد عليه اللفظ والنفس
لا يرحم الموت ذا جاه لعزته ولا الذي كان منه العلم يقتبس
قد كان قصري معموراً له شرف
فغيرك اليوم في الاجداث مندرس

ثم رفعت رأسها الى السماء وقالت ربي منك العدل ومن خالقك الجود وهبتها لي والدة حنونة فلم تمتعني بها كثيراً بل يتمتني صغيرة ثم امرتني بالصبر ووعدتني عليها الاجر فصدقت وعدك ورضيت قضاءك فارحمها وابي اللهمّ رحمةً واسعةً ثم حمدت الله وصلت مع الحكيم راكعين عند قبرها وانطلقا راجعين الى حيث كانا وعلائم الحزن تلوح على وجه الفتاة ولما استقر الحال فيها رفعت عفيفة رأسها الى خليل وقالت ياسيدي انني زاهدة في الدنيا وملاذها لما اعتراني من الحزن على فقد والديَّ فقال لها ايتها السيدة ان تراكم الافكار تجلب الهموم وتضاعف الغموم وملازمة القطوب عنوان المصاعب والخطوب يرتاب بها الصاحب ويشمت بها العدو والجانب والضرر يا مولاتي انما هو عليك لانك تنصرين بها الدهر ولله در القائل

اذا ما كنت للاحزان عوناً عليك مع الزمان فمن تلوم

على ان الحزن لا يرد فائتاً ولا يحيي ميتاً والزمان لا يرعوي

حتى اخذ على العلماء ان يعلموا · فقالت ارجو كرمك ان تفهمني عما يزين الانسان حال غربته عن اهله وبلاده فاجابها ثلاث · حسن الآداب · وحسن الاخلاق · واجتناب الريب · ومن المعلوم ان حسن الخلق اكرم نزيل والاداب ارحم منزل وعلى الانسان العاقل ان يجعل عقله معياراً اذ يشبه بالمرآة كي يلقى كل وجهٍ بمثاله فقالت له الفتـاة لقد اسكرتني بخمرة علمك واطربتني فاخبرني يامولاي عن اسمك فعندها ذكر لها اسمه وسألها المقابلة فاجابته ان اسمي عفيفه وابي ابراهيم الكوفي توفاه الله وانا في سن الطفولية وخلف لي من المال والعقار ما يكفيني ولم يكن لي شريكٌ في الارث سوى والدتي التي ربتني وقد فجعني بها الزمان وابتلاني بفقدها اسأل الله ان يجعل الرحمة سبيلها والنعيم مهرها وان يوسع لها في قبرها ويغفر لها في حشرها فدفنتها في هذه الحجرة واشارت الى حجرة شرقية ثم نهضت وهي باكية كأنها تريد ان تريه ضريح والدتها فشعر الحكيم بمرادها وتبعها حيث ذهبت الى ان دخلت الحجرة التي اشارت اليها فرأى في وسطها ضريحاً ذا قبةٍ من المرمر الصافي عليه ستر من الحرير الاخضر مطرز بالذهب الخالص ومرقوم فيه هذه الابيات

ان الحبيب من الاحباب مختلسٌ   لا يمنع الموت بوابٌ ولا حرسُ

مرحباً بك من زائر كريم ثم اجلسته في صدر القاعة وبعد ان استراح قدمت له المرطبات واخذت تلك السيدة تظهر له حسن المؤانسة واللطف سائلة عن حاله وما الذي اتى به الى تلك الجهة التي لا تنتهي الى طريق ولا يطرقها الا القاصد زيارة اهلها فاجابها انني ضللت ياسيدتي عن الطريق اذ لم يكن معي رفيق الى ان دفعتني التقادير الدخول في هذا الزقاق حيث تيسر لي ان اتشرف بمعرفة ذاتك الكريمة فتبسمت الفتاة واظهرت له من اللطف ما حيّر عقله فهام بحبها ومال قلبه لقربها فسألته عن مهنته وصناعته فقال ان صنعتي مطالعة العلوم والفلسفة وهي ربح مأمون من الخسارة فدأبي مجالسة العلماء والادباء واجتناب مخالطة الجهلاء فتبسمت وقالت لقد تشرفت في هذا النهار بمن ينفعني بعلمهِ ويزيل همومي بانسهِ ثم قالت اخبرني يامولاي ما هي انواع العلوم اجابها هي اربعة الفقه للأديان · والطب للابدان · والنجوم للأزمان · والبلاغة للسان · فقالت له لله درك من عالم علامة لم اتطفل على سؤاله الا لعلمي بان العلماء سرج الازمان كل عالم سراج ازمانه يستضيءُ به اهل عصره · فقال لها الحكيم أجل ياسيدتي ذكر احدهم ان ما اتى الله تعالى عالماً علماً الاّ اخذ عليه ميثاقاً بان لا يكتمه وقيل ايضاً ما اخذ الله على الجهال ان يتعلموا

الفصل الثاني

في توغل خليل في المدينة وملقاه لعفيفه

بينما كانت تجول برأس هذا الحكيم هذه الخواطر قام فخرج من بيته متوغلاً في ازقة المدينة لا يعلم اين يذهب فدفعته التقادير الى زقاق لم يدخله قبل مفروش بالرخام وعلى جوانبه القصور المشيدة تفوح منها روائح الزهور النابتة في حدائقها فرفع رأسه وتأمل بحسن بناء تلك القصور وانتظام بنيانها اذ لاحت منه التفاتة لقصر امتاز عن سواه بحسن مبانيه وارتفاع اركانه وكثرة نوافذهِ وفي احدى شرفاته فتاة اضاءت ذلك الشارع بحسن طلعتها فحياها اجلالاً فردت عليه السلام باحترام ودعته الى منزلها بكل ترحاب وأمرت احد خدامها ان يفتح الباب فدخل ممتثلاً وعند دخوله الدار وجدها مشيدة الاركان منظمة البنيان مفروشة بالمرمر ومنقوشة جدرانها من اعمال القدماء نقشاً يذهل الافكار بتوسطها بحرة على اطرافها اربعة سباع من الذهب الخالص تتدفق من افواهها المياه الصافية فبقي مرافقاً للخادمة في السير غير مكترث بكلما التقاه تأدباً وكي لا يظهر عليه الدهشة حيث كانت تلك السيدة تنتظره في قاعة الاستقبال فلما دنا من الباب سأل الخادمة ان تستأذن له فلاقته السيدة بالترحاب وهي واقفة وقالت له

فان العزب يعد عضواً عقيماً لمخالفة سنة الزواج هذا اذا استثنينا من اصطفاهم الله رعاةً لشعبه اذ ان الشريعة الكنائسية قضت على هؤلاء بحفظ البتولية قياماً بواجباتهم الدينية فاذاً على كلٍ ان يختار لنفسه رفيقاً جامعاً لصفات الآداب معروفاً بالعفاف بحيث يمكنه ان يقاسمه حياته وخيراته وما احرزه من الفضائل والمعارف وما له من الحقوق وما عليه من الواجبات ليتم بذلك الاتفاق والوفاق وبه تتم وصية الله بان يكون الاثنان جسداً واحداً متحدين قلباً وفكراً فعليَّ اذاً ان اتجنب اعمال البعض من الرجال الذين يتوهمون ان الامرأة خادمة لهم ويستبد بهذا الراي الوخيم اذ انه مخالف للآداب ومضر بالهيئة الاجتماعية ومن المقرر ان اعتبار الزوجة واحترام الوالدة ينبوع الفضائل ومصدر الاخلاق الكريمة وبه تتم الفروض دينياً ومدنياً الاولى مراعاةً لامر الكتاب بان الله خلق الانسان ذكراً وانثى وامر ان ينموا ويكثروا ويملؤا الارض والثاني تتميم واجبات المساواة والاتحاد والتعاون الخ اذ هذا نظام الطبيعة الذي لا يمكن مخالفته فعليَّ الان ان اتحرى ايجاد رفيقٍ لي على هذا النمط

الدنيا فينقسم الى مناكحات ومعاملات وعقوبات فان الحق تعالى اسمه اذ اراد بقاء نظام هذا العالم الى وقت قدّره في سابق علمه وكان ذلك متوقفاً على بقاء النوع الانساني الذي يستنسب بازدواج الذكور مع الاناث للتوالد والتناسل اوجد في البشر غريزة الميل الى استنباط الامور الصناعية ليتوفر لهم الغذاء واللباس والمسكن والتعاشر على وجه يعوزه التعاون والتشارك بين الافراد فالانسان اذاً مدني بالطبع لا يمكنه ان يعيش شراذم متفرقة كسائر الحيوانات بل يحتاج الى الجماعة والجماعة تحتاج اليه ليبسط بساط المدنية وعلى هذا المبدأ امر سبحانه بالازدواج وجعله مقدساً ومن المعلوم انه لا يعرف الرجل رجلاً او المرأة امرأةً على الحقيقة الا بالزواج وقيامهما بفروض التوالد بحيث يعيشان متحدين قلباً وقالباً لكي تتوفر لهما السعادة في هذه الدنيا ويستطيعا ان يتما واجباتهما نحو الوطن بان يتركا من بعدهما اولاداً يخدمونهما بعلومهم واختراعاتهم وصنائعهم كما خدما هما الوالدين وذلك بما يتلقونه عنهما من حسن التربية اذ ان تهذيب البنين من واجبات الاباء وهم المأمورون بتربية الاولاد والاجتهاد بهذه الخدمة المقدسة تعوضهم نفعاً وتفيد الهيئة الاجتماعية افادةً حقيقية على ان الزواج يكمل الرجل والامرأة وهو ضروري لبقاء نظام الكون بخلاف العزوبة

من الحكم والنصائح من آثار السالفين واقوال الحكماء وجعلته شبيهاً بالرواية وسميته مرآة الوفاء وراموز الادباء اذ بينت فيه ما يتوجب على البشر على اختلاف طبقاتهم من التمسك باهداب الآداب والتحلي بمحاسن الاخلاق منسوباً لاحد الحكماء وهو خليل بن ابراهيم من مدينة سروج الواقعة بين ارض الجزيرة وبغداد وقدمته خدمة ادبية لابناء الوطن الكرام آملاً ان يحوز منهم الرضى والقبول راجياً ان يصفحوا عما يجدون من الخطأ والزلل فان العصمة لله وحده وهو حسبي ونعم الوكيل

الفصل الاول

كان في مدينة سروج الواقعة فيما بين النهرين اي نهر الكوفة المعروف بالفرات ونهر بغداد المعروف بدجلة رجل من اشهر حكماء عصرهِ وفلاسفة دهره يسمى خليل بن ابراهيم وكان قليل المال يتعيش بثمرات علومهِ من دأبه مجالسة الأدباء وذوي الاطلاع والسعي وراء العلوم والمعارف وهو عزب لا يتجاوز الثلاثين من العمر فبينما كان جالساً ذات ليلة في بيته فكر في امرين يتعلقان في الدنيا والآخرة فقال ان التعلق في امر الاخرة يستلزم الزهد والعبادة والصوم والصلاة ومواساة المسكين اما امر

مقدمة

نحمدك اللهمَّ يا من تنزهت عن الاشباه والنظائر ونشكرك اذا أرشدت عقولنا الى تنوير الابصار والبصائر فمنحتنا من بحر كرمك طواهر الجواهر واوليتنا من ينبوع جودك بدايع التوضيح الزواهر وفتحت لنا باب المنح من مبسوط فيضك المحيط اسألك اللهمَّ ان تهدينا الى الساحل الامين انك على كل شيءٍ قدير

اما بعد فيقول العبد الفقير الى عفو ربه ناصيف بن جرجي ابي زيد اللبناني المقيم في مدينة دمشق الشام ليعلم كل لبيب انه قد انتشرت العلوم والمعارف في هذا العصر الحميدي اذ انه فاق جميع العصور الغابرة وذلك بظل سيدنا ومولانا حضرة السلطان الغازي ابي الفتوح والمغازي صاحب الشوكة والاقتدار والعظمة والافتخار السلطان ابن السلطان السلطان الغازي ✲ عبد الحميد خان ✲ ايد الله سرير ملكه بالعز والنصر الى منتهى الدوران اذ اطلق الحرّية لتبعته العثمانية بتضلع كل فردٍ بما يتيسر له من الآداب والعلم نهوضاً بالهيئة الاجتماعية الى مراتب المدنية هذا واذ كنت احد عبيده تطفلت على اهل التأليف بهذا الكتاب اذ كان البحث في مثل هذه الامور يكسب المرء فائدة جلية جامعاً ما فيه

محمد صبحي الميداني

رواية

صفي الدين الميداني

مرآة الوفاء

وراموز الادباء

تأليف

رفعتلو اصيف بك ابي زيد

طبعت بالمطبعة العثمانية في بعبدا « لبنان » سنة ١٩٠١